وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية

# الحوار مع الآخر..
## المنطلقات والضوابط

سلسلة إصدارات
مجلة الوعي الإسلامي
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الإصدار الرابع

مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية في دولة الكويت
في مطلع كل شهر عربي

**أشرف على الإصدار**

الأستاذ/ أنـور حمـد الحمـد

الأستاذ/ تمـام أحمـد الصبـاغ

الدكتور/ محمد الأمين المختار

الموقع على الانترنت: www.alwaei.com

العنوان:

ص.ب ٢٣٦٦٧ الصفاة

١٣٠٩٧ - الكويت

هاتف: ٢٤٦٧١٣٢ - ٢٤٧٠١٥٦

فاكس: ٢٤٧٣٧٠٩

حقوق الطبع محفوظة

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
قطاع الشئون الثقافية

# الحوار مع الآخر..
## المنطلقات والضوابط

سلسلة إصدارات
الوعي الإسلامي
الإصدار الرابع
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

الحوار الفكري المثمر
هو المعين الصادق للأصالة الإسلامية...
هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة...
هو القدرة على دخول العقول والقلوب...
هو البناء لهمم الرجال بعد التأسيس الروحي...
هو الوقاية ضد جميع الهجمات الوافدة...
هو أداة الإقناع في الحضارة الحديثة...

من هذا المنطلق يسر أسرة تحرير مجلة الوعي الإسلامي أن تهدي قراءها الكرام هذا الإصدار الجديد الذي يتناول قضية محورية تثير جدلاً واسعاً في الساحة الفكرية في هذه الأيام وتشغل حيزاً مهما من اهتمام المفكرين في مختلف مناطق عالمنا الإسلامي، ألا وهي قضية الحوار مع الآخر والإشكالات المختلفة التي يثيرها هذا الحوار وتداعياته المختلفة، وذلك إسهاماً من المجلة في الجدل الدائر حول هذا الموضوع وسعيا إلى تصحيح بعض المفاهيم التي شوشت فهم بعض شباب الأمة حول هذه المسألة.

وحتى لا يكون حديثنا عن الحوار مع الآخر حديثا في المطلق، ارتأينا أن يكون التركيز في هذا الإصدار على المنطلقات التي توجه هذا الحوار والضوابط العامة التي يجب أن يخضع لها أي حوار

يراد له أن يكون هادفاً وبناءً ومن شأنه أن يقطع الطريق أمام دعاة الصراع والصدام بين الحضارات الذين ارتفعت أصواتهم في الآونة الأخيرة.

ويدخل هذا الإصدار ضمن سلسلة الإصدارات الدورية التي قطعت مجلة الوعي الإسلامي عهداً على نفسها بإصدارها منذ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م، وذلك من خلال انتقاء مجموعة من المقالات المتميزة التي كان للمجلة شرف نشرها في أعداد سابقة تتناول محوراً محدداً من زوايا مختلفة وجمعها لتنشر في صورة كتاب.

وقد وقع اختيارنا في هذا الإصدار على موضوع الحوار مع الآخر وذلك لتقديم التصور الإسلامي في هذا المجال وهو التصور الذي ينطلق من وحدة الأصل الإنساني ومن مبدأ التكريم الإلهي للإنسان أيا كان بغض النظر عن معتقده أو جنسه أو لونه ( **ولقد كرمنا بني آدم** ) «الحجرات ١٣».

والشكر موصول لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت وقطاع الشؤون الثقافية في الوزارة لما قدموه من دعم وتشجيع لنشر هذا الإصدار وذلك إدراكاً منهم لأهمية هذا العمل الذي يسعى إلى نشر الفكر الإسلامي الوسطي وبيان الرؤية المتزنة لقضايا عالمنا الإسلامي المتشعبة ويبرز وجه الكويت الفكري والحضاري ورسالتها الإنسانية إلى العالم أجمع.

والحمد لله رب العالمين

**رئيس التحرير**

**أنور حمد الحمد**

# مفاهيم ينبغي أن تصحح في سياق العلاقة مع الآخر (*)

د.عصام أحمد البشير

وزير الإرشاد والأوقاف - جمهورية السودان

(*) محاضرة ألقيت في الندوة السابعة لمستجدات الفكر الإسلامي المعاصر والمستقبل، التي نظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت خلال الفترة ١ . ٣ صفر ١٤٢٥هـ، الموافق ٢٢ . ٤٢ مارس ٢٠٠٤م، نشرت في الوعي الإسلامي عدد: «٤٦٦» جمادى الأخيرة ١٤٢٥ هـ - يوليو - أغسطس ٢٠٠٤ ص ٤٢ .

**أولاً:** إن الكثير من المصطلحات التي تتعلق بالعلاقات الدولية جانبت الوسطية في الفهم وجنحت إلى الإفراط أو التفريط في ذلك:

١- **الجهاد:** فالجهاد عند كثير من الناس يرادف القتال وهو ليس كذلك.. بل يختلفان لغة وشرعاً: فالجهاد مشتق من بذل الجُهد وهو الوسع أو تحمل الجَهد وهو المشقة، بينما القتال مشتق من القتل.

كل مسلم يجب أن يكون مجاهداً وليس بالضرورة مقاتلاً، إذ إن مجاهدة النفس والشيطان ومجاهدة المنكرات ومجاهدة المشركين بالقلم واللسان والمال والسنان وجهاد البناء والتنمية لا يتصور ألا يكون للمسلم فيها نصيب، بخلاف القتال الذي لا يتأتى إلا عندما تتهيأ أسبابه.

**الأسباب التي تدعو المسلمين للقتال تنحصر فيما يلي:**

١- **قتال من يقاتل المسلمين:** لقوله تعالى في الآية ١٩٠ من سورة البقرة: **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾**، وقوله تعالى في الآية ٩١ من سورة النساء: **﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾.**

٢- **القتال لمنع الفتنة في الدين:** لقوله تعالى في الآية ٩٣ من سورة الأنفال: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾**، والفتنة هي مصادرة حرية الناس واضطهادهم لأجل عقيدتهم، وإرغامهم على تغيير دينهم، كما حدث لأصحاب الأخدود. والقرآن يعتبر هذه الفتنة أكبر من القتل،

وأشد من القتل. فالإسلام يشرِّع القتال ليهيئ مناخ الحرية للناس ليؤمن من آمن عن حرية واختيار ويكفر من كفر عن حرية واختيار.

ولعل من الأسباب التي أدت إلى اللبس في مفهوم القتال ما يروَّج له بعضهم أن آية السيف نسخت كل الآيات السابقة، وجعلت السيف هو الفيصل بين المسلمين وغيرهم، ويجاب على هذا بـ:

إن آية السيف لم يتفق عليها، فمن الناس من قال هي آية ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾ التوبة:٦٣، وهذه ليس فيها نسخ بل فيها دعوة للمعاملة بالمثل.

وقال آخرون هي آية: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم**﴾ التوبة:٥، وهذه الآية نزلت في مشركي العرب الذين نكثوا العهود ولا دليل فيها على قتال من وفَّى بعهده، فقبل هذه الآية جاء قوله: ﴿**إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم**﴾ التوبة:٤، وبعدها جاء قوله: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه**﴾ التوبة:٦، وقوله: ﴿**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**﴾ التوبة:٧. ومنهم من قال آية السيف: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ التوبة:٢٩، فهؤلاء وقفوا ضد الدعوة وصدوا الدعاة وتآمروا على المسلمين فحق قتالهم، وليس فيها دليل على قتال من لم يقاتل المسلمين أو يصد عن سبيل الله من الكفار.

كذلك أشكل على بعضهم «حديث بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده»، والحديث. كما يرى العلماء. لا يصح سنداً ومتناً، بل يخالف صريح القرآن الذي لم يذكر في آية واحدة أن الرسول ﷺ بعث بالسيف، بل أكد في آيات كثيرة أنه بعث بالهدى ودين الحق وبالبينات والشفاعة والرحمة للعالمين وللمؤمنين: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ الأنبياء:١٠٧، ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ النحل:٨٩، ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ التوبة:٢٨، ونحو ذلك كثير في القرآن. فالإسلام كما تقدم لا يشهر السيف إلا في وجه من صد عن سبيله وقاومه بالقوة، كما قال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾البقرة:١٩٠، ولو بعث الرسول ﷺ بالسيف لما مكث الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة يلقى هو وأصحابه أصناف الأذى ويستأذنه بعض أصحابه في أن يدفعوا عن أنفسهم بالسلاح فلا يأذن لهم.

٢- **الحرب:** إن مفهوم الحرب في زماننا هذا أخذ أبعاداً أكبر من نشوب قتال بين دولة وأخرى، أو بين مجموعة وأخرى، فظهرت له مدلولات أخرى تمتد لتشمل الحرب الاقتصادية: التي من أسلحتها المقاطعة الاقتصادية وتجميد الأرصدة ونحوه.

الحرب الإعلامية: التي من أسلحتها الإنترنت والفضائيات والصحافة ونحوه.

٣- **الظهور والفتح:** إن الظهور والفتح لا يعنيان خوض المعارك وإعمال السيف في العدو فقط، كما قد يتبادر للأذهان، بل يمكن للمسلمين أن يفتحوا آفاقاً وأقطاراً، فتحاً سلمياً، لا تراق فيه قطرة دم، فلا يشهرون سيفاً، ولا يطلقون طلقة مدفع، ولا يعلنون حرباً. إنه (الفتح السلمي) الذي أصّله الإسلام، في (صلح الحديبية) المعروف، الذي عقد بين الرسول ﷺ وبين مشركي قريش، لإقامة هدنة بين الطرفين، يكف كل منهما يده عن الآخر، فسمّى القرآن ذلك (فتحاً مبيناً) ونزلت في شأنه (سورة الفتح).. وسأل بعض الصحابة الرسول الكريم: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح» (رواه أحمد) إنه الفتح الحضاري الذي يدخل به الناس في دين الله أفواجاً.

٤- **الموالاة والمحادة:** إن القرآن الكريم يزخر بنصوص تنهى عن موالاة غير المسلمين، وتقرر أن الولاء عندما يقع النزاع إنما يكون لله ولرسوله، غير أن هذا الأصل محاط بضوابط تحول دون تحوله إلى عداوة دينية أو بغضاء محتدمة أو فتنة طائفية مثل:

- النهي ليس عن اتخاذ المخالفين في الدين أولياء بوصفهم شركاء وطن، أو جيران دار، أو زملاء حياة، وإنما هو عن توليهم بوصفهم جماعة معادية للمسلمين تحاد الله ورسوله، لذلك تكررت في القرآن عبارة (من دون المؤمنين) للدلالة على أن المنهي عنه هو الموالاة التي يترتب عليها انحياز المؤمن إلى معسكر أعداء دينه وعقيدته.

- المودة المنهي عنها هي مودة المحادين لله ورسوله الذين (**يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم**) الممتحنة: ١، لا مجرد المخالفين ولو كانوا سلماً للمسلمين.

- غير المسلم الذي لا يحارب الإسلام قد تكون مودته واجبة كما في شأن الزوجة الكتابية وأهلها الذين هم أخوال الأبناء المسلمين.. فمودتهم قربة وقطيعتهم ذنب.

- الإسلام يعلي من شأن الرابطة الدينية ويجعلها أعلى من كل رابطة سواها، ولكن ذلك لا يعني أن يرفع المسلم راية العداوة في وجه كل غير مسلم لمجرد المخالفة في الدين أو المغايرة في العقيدة.

٥- **أهل الذمة:** الذمة في اللغة تعني العهد والأمان والضمان، وفي الشرع تعني عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم وتمتعهم بأمان الجماعة الإسلامية وضمانها شرط بذلهم الجزية وقبولهم أحكام دار الإسلام في غير شؤونهم الدينية، وهذا العقد يوجب لكل طرف حقوقاً ويفرض عليه واجبات، وليست عبارة أهل الذمة عبارة تنقيص أو ذم، بل هي عبارة توحي بوجوب الرعاية والوفاء تديناً وامتثالاً للشرع، وإن كان بعضهم يتأذى منها فيمكن تغييرها لأن الله لم يتعبدنا بها، وقد غيَّر سيدنا «عمر» رضي الله عنه لفظ الجزية الذي ورد في القرآن استجابة لعرب بني تغلب من النصارى الذين أنفوا من الاسم وطلبوا أن يؤخذ منهم ما يؤخذ باسم الصدقة وإن كان مضاعفاً فوافقهم عمر وقال: هؤلاء قوم حمقى رضوا المعنى وأبوا الاسم.

ومما يجب إدراكه عن الذمة ما يلي:

- فكرة عقد الذمة ليست فكرة إسلامية المبدأ، وإنما هي مما وجده الإسلام شائعاً بين الناس عند بعثة النبي ﷺ فأكسبه مشروعيته، وأضاف إليه تحصيناً جديداً بأن حول الذمة من ذمة العاقد أو المجير إلى ذمة الله ورسوله والمؤمنين، أي ذمة الدولة الإسلامية نفسها. وبأن جعل العقد مؤبداً لا يقبل الفسخ حماية للداخلين فيه من غير المسلمين.

- الدولة الإسلامية القائمة اليوم تمثل نوعاً جديداً من أنواع السيادة الإسلامية لم يعرض لأحكامها الفقهاء السابقون لأنها لم توجد في زمانهم، وهي السيادة المبنية على أغلبية مسلمة لا على فتح هذه الدول بعد حرب المسلمين لأهلها. وهذه الأغلبية يشاركها في إنشاء الدولة وإيجادها أقلية أو أقليات غير مسلمة، الأمر الذي يتطلب اجتهاداً يناسبها في تطبيق الأصول الإسلامية عليها وإجراء الأحكام الشرعية فيها، ولا بأس أن يكون عقد المواطنة بديلاً عن هذا المصطلح.

٦- **الجزية:** وهي ضريبة سنوية على الرؤوس تتمثل في مقدار زهيد من المال يُفرض على الرجال البالغين القادرين، على حسب ثرواتهم، والجزية لم تكن ملازمة لعقد الذمة في كل حال كما يظن بعضهم، بل استفاضت أقوال الفقهاء في تعليلها وقالوا إنها بدل عن اشتراك غير المسلمين في الدفاع عن دار الإسلام، لذلك أسقطها الصحابة والتابعون عمن قبل منهم الاشتراك في الدفاع عنها، فعل ذلك «سراقة بن عمرو» مع أهل «أرمينية» سنة ٢٢ هـ، و«حبيب بن مسلمة الفهري» مع أهل «انطاكية»،

ووقع مثل ذلك مع «الجراجمة». وهم أهل مدينة تركية. في عهد «عمر» رضي الله عنه، وأبرم الصلح مندوب «أبي عبيدة بن الجراح» رضي الله عنه، وأقره «أبوعبيدة»، فيمن معه من الصحابة، وصالح المسلمون أهل «النوبة» على عهد الصحابي «عبد الله بن أبي السرح» على غير جزية، بل على هدايا تتبادل في كل عام، وصالحوا أهل قبرص في زمن «معاوية» على خراج وحياد بين المسلمين والروم.

فغير المسلمين من المواطنين الذين يؤدون واجب الجندية، ويسهمون في حماية دار الإسلام لا تجب عليهم الجزية. والصغار الوارد في آية التوبة يقصد به خضوعهم لحكم القانون وسلطان الدولة.

## ثانياً: أهداف العلاقات الدولية في الإسلام

إن صياغة أهداف العلاقات الدولية يجب أن تتم في ضوء المنهج الإسلامي للعلاقات الخارجية الذي حددته الأحكام الشرعية فلا ينبغي أن تضع الدول أهدافها للعلاقات الخارجية في غيبة من الإسلام، ويمكن تفصيل أهداف العلاقات العامة في الإسلام على ما يلي:

### أ. أهداف عامة مشتركة.

حماية الدولة: وهو ما يعرف في واقعنا المعاصر بالأمن القومي، ويتطلب سيادة الدولة على أراضيها وحفظها لحدودها الجغرافية وبعدها عن تدخل الدول الأخرى عسكرياً أو سياسياً.

رعاية المصالح المتبادلة: إذ تسعى كل دولة إلى توافر موارد ذاتية تغنيها عن الحاجة إلى عون خارجي لكن هذا في واقع الحال صعب المنال لذلك تلجأ الدول إلى أن تكمل نقصها عبر علاقاتها الخارجية وتبادل المنافع مع الدول الأخرى.

الأمن المشترك: فالأمن هو أحد الضرورات التي يحتاجها كل نظام سياسي يسعى إلى الاستقرار، وإذا كان الأمن الداخلي مسألة خاصة بكل دولة فهناك أمن خارجي مشترك بين دول العالم تحكمه اتفاقات تضمن عدم اعتداء دولة على أخرى، وقد تتحالف دول معينة وتتفق على التصدي لأي عدوان يهدد دولة في الحلف.

السلام العالمي: إن الخلافات بين الدول تهدد أمن العالم لذلك اقتضت المصلحة أن يقوم نظام عالمي لرعاية السلام العالمي ومنع حدوث خلافات بين الدول وتوافر آلية لحل الخلافات بين الدول حفظاً للأمن والسلام العالميين. بيد أن الواقع يشهد انحراف هذا النظام العالمي عن غاياته على ميزان القسط والحق.

**ب - أهداف خاصة.**

نشر الدعوة الإسلامية: فالدولة الإسلامية هي دولة دعوة، تحمل رسالة الإسلام وتبشر بها وتدعو إليها، وتحمل لواء خلافة الرسول ﷺ في الدعوة والبلاغ.

حماية الأقليات المسلمة: يطلق على المجموعات التي تعيش في دولة

أخرى غير التي تقيم بها اسم «الأقليات» والقانون الدولي يعرف الأقليات القومية، ولا ينظر للأقليات الدينية رغماً عن أنه حفظ لها حقوقها المتعلقة بشعائرها الشخصية. أما الإسلام فلا تقف العنصرية أو العرقية حاجزاً أمام الانتماء الأوسع له. ومهمة الدولة الإسلامية تقتضي حفظ حقوق الأقليات المسلمة دون النظر إلى أصولها العرقية أو العنصرية.

درء الأخطار عن الأمة الإسلامية: إن الأمة الإسلامية مطالبة بنشر هذا الدين والذود عنه، وحماية معتنقيه والدفاع عن حرماتهم، وإزالة كل العوائق التي تمنعهم من أن يؤدوا فرائض دينهم بل التي تحول بين غير المسلمين وقبول الإسلام.

**ثالثاً: موجهات العلاقات الدولية**

إن السبيل إلى تحقيق التوازن في العلاقات الدولية يقتضي تحقيق التوازن بين العقل والوحي، بين المادة والروح، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية بين الإلهام والالتزام بين النص والاجتهاد بين الواقع والمثال، بين الثابت والمتحول. بين الارتباط بالأصل والاتصال بالعصر، لذلك فالنظام الإسلامي يتعامل مع الدول الأخرى وفق الموجهات التالية:

١- الإيمان بالتعددية الحضارية الثقافية التشريعية والسياسية والاجتماعية ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ المائدة:٨٤، ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم**﴾ المائدة:٨٤.

٢- العمل على تنمية آفاق التواصل الحضاري ومن ذلك الإفادة من الحضارة

الغربية في المنهج العلمي في الكونيات والنظم الإدارية المتقدمة وتجديد الإحساس بقيمة الوقت وقيمة العدل في ظل مناخ كريم والدعوة إلى قيام شراكه إنسانية صحيحة وقويمة . التبادل العادل للمصالح . والسعي الجاد لخفض أصوات الغلاة من الطرفين.

٣- الدعوة إلى تأسيس فقه الأقليات المسلمة في مجتمع غير المسلمين على قاعدة (لا تكليف إلا بمقدور) أي على قدر الوسع والطاقة بما يحقق للمسلمين الحفاظ على هويتهم دون انكفاء وتفاعلهم دون ذوبان.

٤- التركيز على المنظومة القيمية في علاقة الإسلام مع الغرب والقائمة على وحدة الأصل الإنساني ومنطلق التكريم الإلهي للإنسان ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم**﴾ الإسراء: ٠٧، وإحياء مبدأ التعارف ﴿**لتعارفوا**﴾ الحجرات:٣١، وتعميق الأخوة الإنسانية «وأشهد أن العباد كلهم أخوة»، والتعامل بالبر والعدل مع المسالمين ﴿**أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم**﴾ الممتحنة:٨، والمجادلة بالتي هي أحسن.

٥- العمل على إيجاد القواسم المشتركة والإعلاء من شأن الأنساق المتفقة، فالحضارات تتقاسم أقداراً من القيم مثل العدل والمساواة والحرية إلخ... وأهل الحكمة من كل ملة يستحقون الشكر والعرفان.

٦- عدم تصنيف الآخر على أنه كتلة واحدة بل يتعامل معه على أساس أنه دائرة واسعة الأرجاء، متعددة المنافذ، يمكن مخاطبتها بموضوعية لرعاية المصالح والمنافع المتبادلة دون حيف أو ظلم لتحقيق الأمن والسلام العالميين.

٧- تأكيد الالتزام الواضح بالحرية وحقوق الإنسان ومشروعية الخلاف الفكري والتعدد الديني والثقافي والتداول السلمي للسلطة والدفاع عنها بوصفها أسساً من مبادئ الإسلام، ونبذ العنف في العمل السياسي.

٨- الدعوة إلى إحياء مبدأ التساكن الحضاري واستكمال التوازن المفقود في الحضارة الغربية بالأساس الأخلاقي عبر قدوة ومصداقية يتطابق فيها المثال والواقع ويكون بدلالة الحال أبلغ من دلالة المقال.

٩- الدعوة إلى مخاطبة الرأي العام الغربي من منطلق إنساني تجاه مآسي المسلمين. بإعلام قوي - والإفادة من ذلك في دفع عجلة الحوار والتفاهم.

١٠- تشجيع فكرة المواطنة للجاليات الإسلامية في الغرب مع رعاية مستلزماتها.

١١- يتعين على الأقلية المسلمة أن تراعي المواثيق لدار العهد التزاماً بالقوانين وانضباطاً بأحكامها ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً**﴾ الإسراء:٤٣.

١٢- العمل على الإسهام في علاج مشكلات المجتمع الغربي وإفرازات الحضارة... من انحلال أسري، وتفكك اجتماعي، وانهيار أخلاقي، وانحراف جنسي، وتعصب عرقي، واختلال بيئي، والعمل على إبراز تلك الإسهامات.

١٣- العمل على أن تأخذ الدول الإسلامية مكانها في المجموعة الدولية،

بحيث تعد دولة مؤثرة في سير الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية الدولية وتصحيح الاختلالات في مسيرة المنظمات الدولية التي اضطربت فيها المعايير وتأكيد الثبات على الخصوصية الثقافية والهوية الحضارية لأمتنا مع الفاعلية الإيجابية التي تلتمس النافع من أي وعاء.

١٤- رفض الاستعلاء الثقافي والقول بمركزيته الحضارية الكونية، عبر فرض المناهج على أمتنا، والعمل على تأسيس قواعد الإصلاح وفق منظومتنا القيمية دون استجابة لضغط الوافد.

• • • • • • •

# نحن والغرب صراع المصالح.. أم صراع الرؤى والقيم؟ (*)

ممدوح محمد الشيخ علي

مفكر إسلامي - مصر

(*) الوعي الإسلامي: عدد «٤٥٨» - شوال «١٤٢٤ هـ، نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٣ ص : ٢٤.

العلاقة بين المصالح السياسية الآنية المباشرة والرؤى الحضارية في شمولها وعمقها علاقة معقدة لا يمكن تجاهلها، فلا يجوز الاكتفاء في رسم صورة لمساحات الخلاف الكبيرة بيننا وبين الغرب باستحضار لحظة تاريخية واحدة كالحروب الصليبية مثلاً لتخليص تاريخ العلاقة، كما لا يسوغ التوقف عند مفردة واحدة من مفردات العلاقة في الحاضر كما هو الحال مع التمركز حول النفط أو الموقف الاستراتيجي أو.... كتفسير وحيد يغيب غيره من العوامل، وبقدر ما تعد الحروب الصليبية العلامة المميزة للقرون الوسطى والحدث الأكثر أهمية فيها بقدر ما تعد أهم عوامل صياغة العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، فرغم أنها انتهت فعلاً بزوال الإمارات الصليبية التي أقاموها في الشام إلا أنها مازالت النموذج التفسيري الأثير لدى العقلية الإسلامية لواقع العلاقات بيننا وبين الغرب واستشراف مستقبلها، وهو ما يعني الحكم على هذا المستقبل بأنه محكوم بمنطق الصراع وإلى أجل غير مسمى، ولكن لماذا الصراع وأي صراع؟

هل التفسيري التآمري الأحادي أم التفسير المركب؟ عند التحليل الهادئ نجد أن الموقف من الغرب مركَّب لا يصلح لتفسيره عنصر واحد وأول العوامل التي تؤثر في صياغة هذا الموقف قدرة المسلمين على . ورغبتهم في . تغيير خريطة ما اعتبره الغرب «المجال الحيوي» الذي يحاول لقرون الحفاظ عليه. ويمكن تقسيم تاريخ هذه العلاقة الصراعية إلى خمسة مراحل أساسية:

**الأولى:** اندفع فيها المسلمون بعد قليل من وفاة الرسول ﷺ شرقاً وغرباً بفتوحاتهم، وهي المرحلة التي انتهت بتقليص الأمبراطورية الرومانية والوصول للمغرب والأندلس غرباً وسيبيريا شرقاً.

**الثانية:** مرحلة الرد المسيحي من خلال ما سُمِّي «حرب الاستعادة» في الأندلس وصولاً للهجوم على قلب العالم الإسلامي في «الحروب الصليبية».

**الثالثة:** بدأت مع توسع الدولة العثمانية على حساب القوى الغربية «المسيحية» وانتهت بفتح القسطنطينية والامتداد في البلقان حتى فيينا.

**الرابعة:** مرحلة أخرى من التمدد الغربي جنوباً وشرقاً لم تقتصر على العالم الإسلامي، بل امتدت إلى ما وراءه في حقبة الاستعمار المباشر. وكان من نتائجها الخطيرة محاصرة الدولة العثمانية والتهام أراضيها وفرض الاستعمار بأشكاله المختلفة على القسم الأكبر من «ديار المسلمين»، وهو ما مكن القوى الغربية الكبرى من زرع الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي.

**الخامسة:** تبدأ - تقريباً - مع النصف الثاني من القرن العشرين وفيها نهض المسلمون للقضاء على ظاهرة الاستعمار المباشر.[1] وقد استشعر الغرب خطر الإسلام عندما وجد حدود المواجهة معه تمتد في جبهة شديدة الاتساع «سيبيريا - الأندلس» وتركت هذه المواجهة آثاراً شديدة العمق في العقل والوجدان الغربيين لدرجة أن الاستيلاء على الأميركيتين وأستراليا فيما سُمِّي «اكتشاف العالم الجديد» واستيطانه - وهو ما يعد النقلة الأهم في تاريخ الغرب - جاء ثمرة رغبة الغرب في الالتفاف على

١- صاحب هذا التقسيم: «جان بول رو» في كتابه: «الإسلام في الغرب». تعريب: نجدة هاجر وسعيد الغز - المكتب التجاري - بيروت - ١٩٦٠ - ص٦٥ - ٧٠.

سيطرة المسلمين على طرق التجارة الأكثر أهمية إلى الهند حتى العصر الوسيط، حتى تم اكتشاف «طريق رأس الرجاء الصالح».

**ما قبل الصراع**

وقبل استحضار تاريخ الصراع ينبغي تحليل بنيته بحثاً عن المنطلقات والمفاهيم السابقة، فالوقائع منفصلة عن هذا الإطار هي مجرد أحداث متوالية تدفعها «حتمية الصراع». ويقودنا هذا لقضية تصورنا للغرب أو ما يطلق عليه «الصورة الذهنية» فهي مفتاح الفهم ومفتاح إدارة العلاقة.

والقاسم المشترك في كل مراحل التاريخ الغربي هو عنصريته، فهو عنصري في وثنيته عنصري في مسيحيته عنصري في إلحاده. وفي الثقافة الغربية ميراث فكري ضخم يبرر الظاهرة، بل ينظِّر لها وهو ميراث تمتد جذوره للفلسفة اليونانية مروراً بالقانون الروماني. وخلال القرنين الماضيين حاول الغرب القضاء على هذه الطبيعة العنصرية لكنها كانت تحت جلده وهو ما اكتشفه بظهور النظرية النازية التي كانت لها أدبياتها الفلسفية والسياسية والعلمية أيضاً ولعل أهم شواهدها النظريات الطبية العرقية. ومن التعريفات التي تحاول الوصول لعمق بنية الغرب هو أنه: «ليس مجرد كيان ديني أو أخلاقي أو عرقي بل حتى اقتصادي، إنه وحدة تركيبية من هذه التجليات المتباينة: كيان ثقافي وظاهرة حضارية»[1] وداخل هذه الظاهرة يتفاعل مشروعان كبيران: ديني «يهودي مسيحي» وآخر علماني إلحادي ذي جذور يونانية.

---

١- الوصف للباحث الفرنسي سيرج لاتوش في كتابه: «تغريب العالم»، نقلاً عن: الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث. الدكتور مصطفى حلمي. دار الدعوة. مصر. الطبعة الأولى. ١٩٩٨ ص ٥.

## صراع القيم

وإذا كانت رؤيتنا للغرب محكومة إلى حد كبير بتجربة الحروب الصليبية فإن رؤية الغرب لنا محكومة بما هو أعمق إذ هي محكومة برؤيته للكون والإنسان وما وراء الكون، وصلب هذه الرؤية مقولة «وحدة الوجود» وتعني في هذا السياق القول بوجود مشابهة بين الله تعالى «تعالى عن ذلك علواً كبيراً» وبين جنس بعينه من البشر، وهذه المشابهة المتوهمة تعني مكانة خاصة متميزة لهذا الجنس تفوق الأجناس الأخرى ومن ثم تترتب عليها حقوق مطلقة قبل الأجناس الأخرى. ولذا فإن الأيقونات المسيحية تصور المسيح شخصاً أشقر وهو ما يؤكده قول أحد رؤساء أساقفة كنيسة كانتبري: «إننا نؤمن أن الله خلق المسيح على صورته ولهذا فهو أشقر!!». وفي مواجهة هذا الموقف العنصري البغيض ظهرت أيقونات تصور المسيح حسب ثقافة كل جنس، فهناك أيقونة تصوره بملامح الجنس الأصفر وأخرى بملامح زنجية وهكذا ... وكل تصور حلولي يتأسس على أن الله يحل في العالم «تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»، سواء كان هذا الحلول في شخص «المسيح» أو في أمة «الشعب المختار»، فإن ذلك يؤدي بالضرورة للعنصرية، ونفي هذا الحلول هو الأساس الذي تبنى عليه المساواة بين البشر جميعاً، ولعل هذا أحد أهم أسباب حتمية الصراع القيمي بين الإسلام والحضارة الغربية. وقد أدى الانتصار المكلل بالعار الذي أحرزه الغرب في صراعه مع سكان ما سُمِّي «العالم الجديد» إلى تصور حتمية نجاحه عند تطبيقه في مواجهة الأمة الإسلامية.

### مواجهات الرؤى الشاملة

وإذا كان الصراع العسكري بين الغرب والعالم الإسلامي قد توقف إلى حين فإن الصراع بين المنظومات القيمية لم يتوقف قط، فهناك الآن فيض ثقافي ينطلق من الغرب: صور، كلمات، قيم أخلاقية، قواعد قانونية، اصطلاحات سياسية، معايير كفاءة تتدفق من الشمال[1]، ووراء المنتجات الثقافية تتدفق منظومة معرفية متكاملة، وطرق المعرفة نتاج طبيعي للمسلمات التي تؤمن بها أي أمة، ذلك أن كل رؤية شاملة تتضمن بالضرورة مفاهيمها الخاصة للقيم الحاكمة. وفي تاريخ الفكر الإنساني ثلاث مدارس كبرى، اثنتان منها «المدرسة الغربية والمدرسة الصينية» تقومان على مفهوم التناقض أي حتمية الصراع بين الأطروحة ونقيض الأطروحة، أما المدرسة الثالثة «الإسلامية» فتقوم على حقيقة أن الظواهر مركبة وأن الصراع بين الأطروحة ونقيضها يحل محله مفهوم قادر على التوفيق بين مفاهيم وأفكار تبدو متناقضة.[2]

## التحدي الإسلامي

إن الإسلام يشكل بالنسبة للغرب التحدي الأكبر، حتى وإن لم يكن العدو الأول، وهو التحدي الأكبر لمنظومته القيمية التي استعصت على الاحتواء على مدى قرون من التدافع والصراع فرؤيته للكون والإنسان وما وراء الكون، ومنظوماته القيمية والتشريعية تتسم بتماسك وقوة تجعلها العقبة الأكبر

١- الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث. الدكتور مصطفى حلمي. دار الدعوة. مصر. الطبعة الأولى. ١٩٩٨م. ص٦٥.

٢- المبادرة التاريخية نحو طريق الحرير الجديد. الدكتور أنور عبدالملك. الهيئة المصرية العامة للاستعلامات. مصر. سلسلة أفكار رقم ٤. ص٧١.

في سبيل انتصار النموذج الغربي انتصاراً حاسماً . إذا افترضنا أن هذا الانتصار ممكن ابتداء . ليتحقق الحلم الغربي بوصول التاريخ الإنساني إلى نهايته، وبقدر ما تحقق «حمى نهاية التاريخ» المزيد من الانتشار غربياً كلما ازدادت الرغبة في قهر العالم الإسلامي ثقافياً ومعرفياً والطموح إلى انتزاع اعتراف منه بقبول دور التابع الدائر في فلك المركزية الغربية.

وما يحققه الإسلام من انتشار سريع في الغرب رغم الحال المزرية من التخلف التي يمر بها العالم الإسلامي ورغم حملات التشويه الجبارة التي يتعرض لها يشير إلى أنه قادر . بمعزل عن دعم سياسي من الأمة الإسلامية . على المزيد من التوسع، فهو يحتاج إلى الحرية وحسب.

وكلما ازدادت وتيرة انتشار الإسلام في الغرب كلما أصبح مطروحاً كمكون ثقافي في مجتمعات تعتبر الحرية أثمن ما تملك، وبالتالي لا يمكن أن تفكر في اللجوء لقمعه أو استبعاده بعد أن أصبح وجوده يستند إلى قاعدة سكانية غربية صلبة، وبالتالي فقدت صورته النمطية كوافد قدرتها على التأثير، ففي فرنسا لم يعد الإسلام مغاربياً، وفي ألمانيا لم يعد تركياً، وفي بريطانيا لم يعد باكستانياً... وهكذا.

ولذا فلا غرابة في أن يصبح احتواء الإسلام وتطبيعه غربياً أحد أكثر القضايا إلحاحاً على العقل الغربي، فيصبح حجاب طالبة مسلمة سبباً في إثارة رعب يذكّر الغرب بصفحة من أكثر صفحات تاريخه سواداً هي صفحة الحروب الدينية والمذهبية الغربية . الغربية، فلا بريطانيا استطاعت قبول وجود كاثوليكي فيها ومازالت مشكلة أيرلندا جرحاً مفتوحاً حتى الآن، ولا

فرنسا استطاعت استيعاب وجود بروتستنتي فيها...

ومن ثم فإن القدرة على تقبل الوجود الإسـلامي في الغرب عامة تحيط بها شـكوك عميقة أياً كانت الحقوق التي يتمتع بها المسـلمون آنياً. والصور النمطية هي الوجه الظاهر للمشـكلة وليست صلب المشكلة، والمصالح سواء سياسـية كانت أو اقتصادية مهما بدت مهمة ليست إلا ستاراً لصراع أعمق لا سـبيل لتجنبه إلا بتغيير عميق في إحدى العقليتين الإسلامية أو الغربية وهذا مدار الصراع.

* * * * * * *

# مصالح الحضارات وليس صراع الحضارات (*)

د. أحمد عبدالعزيز المزيني
الأمين العام لجماعة أنصار الشورى - الكويت

(*) الوعي الإسلامي عدد ٤٥٥ - رجب ١٤٢٤ هـ -سبتمبر- اكتوبر ٢٠٠٣، ص: ٤٦.

في تاريخ البشـــرية قامت حضـــارات عدة، وكان مجـــال التأثير والتأثر فيمـــا بينها حيويـــاً وقائماً، لا ينكـــره أحد، ومع ذلك كلـــه كان لكل حضارة منهـــا خصوصيـــة معينة، تَشـــي بما للحـــدود الإقليمية لكل حضـــارة، وما للمـــوروث الثقافي لديها، وما للمميزات البشـــرية فيها من «فعل» في تكوين هذه الحضارة أو تلك، وفـــي تلوينها، وفي تميّز هذه من غيرها. فالحضارة الصينيـــة كان لابد أن تختلف بالضرورة في جوهرها ومعدنها عن الحضارة اليابانية. رغم قرب المســـافة بينهما. وهما بالضرورة تختلفان عن الحضارة الهندية، ومن ثم عن الحضارة الفرعونية، وهي جميعاً تختلف عن الحضارة اليونانية، ومن ثم عن الحضارة الغربية الحديثة برمتها، وهذه كلها مجتمعة أو متفرقة تختلف عن الحضارة الإسلامية، في منابعها وروافدها ومعطياتها عبر تاريخ طويل.

لقد كان لكل حضارة إنســـانية إسهاماتها في حياة الإنسان، وفي تقدمه ورفاهيتـــه، وهو مـــا لا ينكره أحد، مع الاعتـــراف واليقين من قبل الباحثين بوجود تفـــاوت ملحوظ بين حضارة وأخرى، في مجـــال الغايات والأهداف والفلســـفات، والعطـــاء، والأداء، والتأثير، وعلى «موضوعيـــة» التفاوت بين الحضـــارات يبرهن على الخصوصيـــة الذاتية وبمعنى آخـــر: لكل حضارة طعمها ومشربها ومميزاتها وفلســـفاتها التي تجعلها تختلف بشكل أو بآخر عن غيرها.

على أن التفاوت بين الحضارات لم يكن ســـداً يمنع من التقارب والتأثير والتأثر فيما بينها، ولم يحل دون التعاون بين شعوب تلك الحضارات، بل لعله كان سبباً مباشراً في مجالات الأخذ والعطاء.

## العلاقة بين الحضارات

لا أحد ينكر أن هناك علاقة بل علاقات ووشـائج وصلات بين مختلف الحضارات البشـرية، بعضها يكون ظاهراً للعيان، وبعضها يكون خافياً عن الأذهان، غير أن هذه العلاقات والوشـائج مرهونـة باعتبارات عدة، فكلما تقدمت وسـائل الاتصال المـادي والفكري، ازدادات معهـا عملية التواصل الحضاري، ومجالات التأثير والتأثر والأخذ والعطاء.

قـد تكون الهجـرات الفردية والجماعية التي رصدتهـا حركات التاريخ القديمة، وأشكال التبادل التجاري، إضافة إلى «ظاهرة» الاستعمار التقليدي القديم والوسـيط والحديث، من بين أهم العوامل التي لعبت دوراً فاعلاً في التواصل الحضاري، والتأثير في الآخر، والتأثر به، بحيث لا يسـتطيع أحد - من علماء الحضارات والاجتماع البشري - أن يعزو هذه الحضارة أو تلك إلى شـخص «فرد» بعينه أو إلى أفراد بأعينهـم، فصناع الحضارات الذين غرسـوا «البذور» الأولى لكل حضارة هم أناس مغمورون، وجنود مجهولون، انطلقت على أيديهم الشرارة الأولى لكل الحضارات الكونية.

ولا يمنع ذلك من وجود بعض الرموز المعروفة من بُنَاة الحضارات، وذلك لا يكون عادة إلا في مراحـل الرقي والصعود الحضاري، وليس في مراحل النشـأة الأولى للحضارة، ولهذا كله جاءت نسبة كل حضارة إلى «الأمة»، أو إلى الدين «الحضارة الإسـلامية»، أو إلى «الإقليم» الذي عاشـت فيه هذه الحضـارة أو تلك، وهذا مـا جعل «ملكية» الحضارة ملكيـة عامة أو ملكية «مشاعية»، جماعية لأبناء الأمة كلها، وليس لشريحة معينة في المجتمع دون

غيرها، وهو ما فتح الباب واسعاً لمجالات التأثير والتأثر والأخذ والعطاء بخلاف الملكيات الفردية أو الملكيات الخاصة التي قد تحول، أو تقلل من تلك المجالات.

ولقد كان الخوف كل الخوف. في الماضي. على الحضارات القديمة والممالك العظيمة من الدخلاء على الحضارات الإنسانية، وقد لعبوا دوراً في «تلويث» تلك الحضارات، وهم الذين يقفون بالمرصاد. هذه الأيام. لكل تقدم إنساني بشري، وهم الذين يندسون في الصفوف لإحداث الشروخ في البناء الحضاري الشامخ، وستكشف هذه الدراسة عمَّن يقفون بالمرصاد لكل تقدم بشري على مستوى العالم كله.

## فوارق جوهرية

ومن البدهي، أن بعض الحضارات التي عرفت عبر التاريخ لم تتعدَّ حدودها الإقليمية، ولم يكن لها تأثيرها الفاعل والمباشر والقويّ في غيرها مما يجاورها من شعوب وأمم ودول، وإذا استثنينا حضارتين هما: الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، فإن باقي الحضارات تمثل حضارات محلية خاصة بحدودها الإقليمية[1]، «ولم تملك أيٌّ منها. عبر تاريخها. إمكانات المنافسة العالية والعطاء والتأثير والقبول خارج حدودها، ومن ثم فهي لا تمثل حتى في مراحل نهوض أممها خصماً حضارياً للحضارة الغربية التي تهيمن على مقدرات عالمنا منذ قرون عدة، بينما الحال في علاقة

١- محمد عمارة، عالمنا حضارة أم حضارات، ص ٦. ٧، ط الأولى ١٩٩٧م، دار الوفاء. المنصورة. مصر.

الحضارتين الإسـلامية والغربية ليس كذلك، فكل منهمـا إمكانات التأثير والعطاء والقبول خارج الحدود، كما اتسمت العلاقة بين هاتين الحضارتين: الغربية والإسـلامية منذ أقدم العصور بالمواجهة والتصعيد والتدافع الذي «بلغ حدّ الصراع عبر حقب طويلة من التاريخ[1]».

**أهو صراع حضاري أم تدافع؟!**

يميل بعض الكتّاب الغربيين ـ لحاجة في نفوسهم ـ إلى تصوير العلاقة بين الحضارات على أنها «صراع» بينما يميل بعض الكتّاب المسـلمين إلى تسمية تلك العلاقة بـ«التدافع» بين الحضارات، اسـتناداً إلـى قوله تعالى: ﴿**ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾ البقرة:١٥٢، وقد يبدو ـ لمن يتعجل الأمور ـ أن المحصلة النهائية في الحالين واحدة تقريباً، وهي محاولة تغلُّب إحدى الحضـارات على غيرها من خلال الصـراع أو التدافع، وهذا غيـر صحيح وغير منطقي، لأن نظرية الصراع ـ كما يفهم من المعنى اللغوي للكلمة، وكما هي الحال في حلبـات المصارعة ـ تنتهي بصرع الآخر وتغييبه عـن الحلبة، وإقصائه بعيداً، وبذلـك يصبح مجرد تصوير هذه العلاقة بين البشـر ـ من خلال هذا الطرح ـ على أنها «صـراع» أو «صدام»، وفق عنوان كتاب «صموئيل هنتنغتـون»، الذي يدل على نزوع عدواني، وهو أمر مألوف لدى شـرائح من المفكرين في الغرب، ويشكل جزءاً من ثقافتهم ووعيهم، تمّ إكسـابه من خلال علاقتهم السـلبية مع بقية الشعوب التي خضعت للنفوذ الاستعماري، ومن خلال قراءتهم المنحازة للتاريخ، وللماضي.

١- محمد عمارة، عالمنا حضارة أم حضارات، ص ٦ ـ ٧، ط الأولى ١٩٩٧م، دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر.

بينما تسعى نظرية «التدافع» الحضاري إلى الإبقاء على كل ما هو حسن ونافع ومفيد للبشـــرية من ثمار تلك الحضـــارات وإنجازاتها التي تدخل في عمليـــة تدافع حضاري، فغاية التدافع عمارة الأرض. كما جاء في نص الآية السابقة. وأما غاية «الصراع» فتنطوي على تبييت النيّة إلى الوصول بالآخر إلى «العدمية»، والهلاك، والانزياح من الطريق، والتصادم معه مادياً ومعنوياً فكرياً وجســـدياً، وبذلك تبقى نظرية التدافع الحضاري، التي يتبناها المفكر الإسلامي، تدل على قناعة بأن البقاء في المنظومة الحضارية لابد أن يكون للأصلح وليس للأطلح، وللنافع وليس للضار، وللقوي الأمين، وليس للأعتى المتجبر.

وبذلك يبقى التدافع من وجهة النظر الإســـلامية حركة طبيعية مستمرة تعيشها شعوب الأرض، بهدف الانتخاب الطبيعي للأمثل والأفضل، لتحقيق عمـــارة الكون والاســـتخلاف في الأرض، وهي أشـــبه بعملية المخاض الذي يبشر بولادة جديدة لكائن، سوف يحيا، يعيش، ويعمل ويعمّر، وبذلك يتجدد الكون وفق معيارية «الأصلح» وليس الأطلح ولا الأعتى، فلولا التدافع لفسدت الأرض، فأنا وأنت ندفع كل من يشكل عنصراً من عناصر الفساد، كالمرض، والتلوث، والتشويش، والفوضى والتشويه، والظلم والعدوان، ولكننا لا نصدم ولا نصرع «الآخر» الذي يحمل مشـــعلاً أو شـــمعة أو عود ثقاب، يضيء به الطريق لنفسه، ولنا، وللآخرين.

### مصالح الحضارات

هناك من يؤمن بوجود «صراع» بين الحضارات والأمم. كما رأينا وسنرى

فـي الصفحات المقبلة . وهو صراع فيما يبدو قديماً قدم البشـرية، متجدد تجدد الحياة، فقد شـهد العالم ومازال يشهد صنوفاً من الحروب الدامية، وكان الإنسـان فيها . كما يُقال . ذئباً لأخيه الإنسـان، جيوش تَتْرَى كالأنهار المتدفقـة، والأمواج المتدافعة، تجتاح ما تجده أمامها من إنسـان وشـجر، وحجر.

لقد فعل الإنسـان خيراً بعـد الحربين الكونيتين، عندمـا أقام «عصبة الأمم»، ثم «هيئة الأمم المتحدة»، لمنع انتشار الحروب، والحد من الصراعات الدولية، وتعزيز الأمن والسـلام العالمي، ومازال أمام الإنسـان فرصة قوية لتفعيل دور الأمم المتحدة، لإيجاد الحلول المناسبة المنصفة لمختلف النزاعات الدولية التي يشهدها العالم اليوم.

وإلى جانب من يؤمن بوجود صراعات وصدامات بين الحضارات، وعلى النحو السـابق من «الاحتـراب الدامي»، هناك من يؤجـج تلك الصراعات والصدامات، ويذكي الحروب والفـتن ويزيد لهيبها، ويعمل على تصعيدها، كلما خبت جذوتها وانطفأ أوارها، ويجد في ذلك كله مساحة لتحقيق مصالحه الذاتية، وهي مصالح لا تحقق بالنسـبة إليـه إلا من خلال تلك الصراعات والمنازعات والحروب المفتعلة بين الدول، «وتلويث» الأجواء العامة، والثقافات البشرية من خلال أطاريح فكرية «مريضة»، تصور لصانع القرار أن الصراع بين حضارة الغرب والحضارات الأخرى، وفي مقدمها الحضارة الإسـلامية حتمـي، لا مفر منه، ولا مَعْـدَي عنه، وأن هناك خصوماً «أصحاب حضارة» هم الأشد عداوة، والأقسـى ضراوة، وصراعاً، والأقوى منافسة، في تهديد مصالحهم وأمنهم.

لذلك لا نستغرب عندما يصرُّ كثير من الكتَّاب الغربيين على أن عالمنا حضارة واحدة، أو هكذا ينبغي أن يكون!! بحيث تهيمن عليه هذه الحضارة الأحادية، ذات القطب الواحد، هي حضارة الغرب، ولماذا لا يستعدي الغرب منذ قرون وقرون إلا الحضارة الإسلامية من بين حضارات البشرية كلها؟ ولماذا لا نجد الصراع إلا بين أصحاب الحضارات، ممن لهم كتب سماوية: «الغرب المسيحي × الشرق الإسلامي، وكأنهم يريدون أن يصوروا أن الصراع صراع بين الأديان، وهو في حقيقته صراع بين التطرف الفكري والأيديولوجي، إنه صراع من أجل البقاء، ومن أجل السيطرة ومن أجل المصلحة، ولعل «مما يثير الانتباه في هذا الصدد أن الحربين العالميتين لم تكونا بين حضارتين مختلفتين، وإنما كانتا داخل حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية، كما أن الحرب الباردة أيضاً كانت داخل حضارة واحدة ذات أيديولوجيتين مختلفتين»[1]، وقد حدث شيء قريب من ذلك داخل الحضارة الإسلامية، فأحداث التاريخ السياسي القديم منه والحديث شاهد على ذلك، «وهذا يعني أن الصراع بين بني الإنسان لا يكون بالضرورة بين حضارات مختلفة»[2]، ولكن مما يؤسف له، أن بدأت أصوات تعلو في الغرب تحديداً تستهدف إيقاظ الفتنة، وإذكاء المشاعر العدوانية ضد الحضارة الإسلامية، «إن الغرب لا ينظر إلى حضارتنا الإسلامية نظرته إلى الحضارات ذات الطابع الإقليمي، والآفاق المحلية . حضارة الهند والصين واليابان مثلاً،

---

١- محمود حمدي زقزوق، الإسلام في ظل العولمة، ص ٤٧.

٢- محمد عمارة، العالم الإسلامي والمتغيرات الدولية، ص ٦٢، ط الأولى، ١٩٩٧م، دار الوفاء . المنصورة . مصر.

فهذه لا تمثل منافساً ولا بديلاً للأنموذج الحضاري الغربي، وإنما ينظر إلى حضارة الإسلام وبشهادة التاريخ كالمنافس الأول والمزاحم الوحيد، والبديل الأكيد، لحضارته في معترك الصراع الحضاري العالمي(....)، وقد تحدث رئيس المجلس الوزاري الأوروبي وزير خارجية إيطاليا «جياني ديميكليس» عن طبيعة المواجهة المقبلة فقال: صحيح إن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي»[1].

يصرُّ الغرب على وجود مواجهة محتملة، ولا يفكر بمصالحة محتملة بين الحضارات بعيداً عن نزعة الهيمنة والاستعلاء والغطرسة، ولماذا لا نؤمن بما يسمَّى «تعدد الحضارات»، وأن بينها أو ينبغي أن يكون بينها حوارات حضارية، تقوم على المصالح المشتركة بين الحضارات جميعها وبين مختلف الشعوب التي تعيش على هذا الكوكب؟

ولهذا كله كان ميلنا إلى ما يجسده مفهوم «مصالح الحضارات» من قيم إنسانية، تسهم في بناء مجتمعات تقوم على «مبدأ التبادل الخلاَّق بين كل الثقافات، لا يمكن أن تكون نتاج حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية»[2]، بحيث لا تقتصر المصالح على تبادل السلع الاستهلاكية بين الشعوب، وهي أهون ما يكون في العلاقات البشرية، إذ تقع على هامش الحياة، وعلى هامش

---

١- محمد عمارة، العالم الإسلامي والمتغيرات الدولية، ص ٦٢، ط الأولى، ١٩٩٧م، دار الوفاء - المنصورة - مصر.

٢- روجيه غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، ص٩١، «ترجمة: مروان حمدي»، ط الأولى، ١٩٩٨م، دار الكاتب، دمشق، سورية.

العلاقات الدولية، وهناك ما هو أسمى منها في إقامة الروابط الإنسانية، ألا وهو الندية، والاحترام المتبادل، والحوار الفكري في بعده العالمي، لقد «اكتمل زمن الحوار الثقافي الذاتي عند الغرب، وانتهى زمن انشقاقه عن الآخرين وسيطرته»[١] و«اليوم جاء زمن الحوار بين الحضارات»[٢]، مثل «حضارة آسيا والهنود الأميركيين وأفريقيا وحضارة الإسلام، فقد عرفت وعاشت روابط أخرى مع الطبيعة والإنسان والإله»[٣].

إن «المشكلات المطروحة على مستوى الأرض كلها تتطلب إجابات على مستوى الأرض أيضاً.

ولن نستطيع حل هذه المشكلات إلا إذا نجحنا بإعادة الملامح الإنسانية التي مزقتها أربعة قرون من الاستعمار والهيمنة الغربية، لن نستطيع حلها إلا إذا نجحنا في تطوير حوار حضارات حقيقي بين كل ثقافات العالم.

والهدف الرئيس لحوار الحضارات هذا، هو الإسهام في تحقيق الوعي «ليس بين عدد قليل من المختصين أو المشتغلين بالفلسفة، إنما بين الجماهير الشعبية الواسعة» بالمشكلات العالمية الراهنة، التي نتج أهمها من السيطرة الغربية المطلقة ومنذ زمن طويل، والوعي بأن حلها لا يمكن أن يتم إلا بالحوار مع الحضارات غير الغربية من أجل إنجاز وإحياء علاقات جديدة بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والإله» [٤].

---

١- المرجع السابق، ص١٤١.
٢- «المرجع السابق».
٣- «المرجع السابق ٩).
٤- «المرجع السابق»، ص ٢٤١.

# المسلمون والغرب:
# قراءة في فقه الواقع (*)

شاكر عبدالقادر عبدالمقصود
باحث وكاتب مصري

(*) الوعي الإسلامي: عدد «٤٧٠» - شوال- ١٤٢٥ هـ، نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٤، ص: ٢٨ / وعدد: «٤٧١» ذو القعدة -١٤٢٥ هـ، ديسمبر - يناير ٢٠٠٥ ، ص : ٣٠ .

يمتد ملف «المسلمون والغرب» منذ ظهور الإسلام وحتى الآن، فهناك الكثير من العلاقات المختلفة التي تقف وراء خلفية الصراع الديني الأكثر بروزاً، كالعلاقات السياسية والتجارية، والعلمية والثقافية المختلفة، وجميعها تبرز كعلاقات متشابكة شديدة الارتباط والتعقيد، أما إذا نظرنا إلى جملة العلاقات بين الغرب والشرق، فإننا سنجد أن الأطر والفلسفات الحاكمة لهذه العلاقات والمنطلقات الأيديولوجية التي تصوغ هيكلها وبنيتها لن تختلف كثيراً سوى في بعض الأوزان النسبية، سواء بين الكتل الحضارية والأقاليم الثقافية المختلفة، أو بين الهياكل والأطر التنظيمية المحددة لموضوع المبادلات سواء أكان ذلك من ناحية الكم أم الكيف أم الاتجاه.

وعلى سبيل المثال، فإن خلفية الصراع الديني الأكثر بروزاً والأكثر تجذراً على مدار التاريخ المشترك بين المسلمين والغرب سوف تبقى على الجانبين محكومة بأهواء الساسة وصراع السلطة الذي فرض محاولات لاكتساب أرض جديدة أو تصدير عوامل التوتر والصراع خارج بنية النظام القائم، ولكن على مستوى التحليل الأكثر عمقاً سنجد أن هذه الصورة تبرز في الغرب أكثر نتيجة لخضوع الأهواء السياسية للأهواء اللاهوتية الناتجة من التفسير التعسفي اللاموضوعي للكتاب المقدس «أو للتحالف الاستراتيجي بينهما»، الذي جعل الغرب في حال حرب مقدسة مع العالم بعامة، ومع المسلمين بخاصة، وهو ما قد يبدو عكسياً على الجانب الآخر، حيث نتج من خضوع رجال الدين لأهواء النخب السياسية «أو الصراع بينهما» في العالم الإسلامي استغلال مستمر للقيم الإسلامية لتحقيق مكاسب سياسية سواء

في الداخل أو في الخارج، وعلى كلا الجانبين قاد ذلك إلى كوارث في الفكر والضمير والسلوك سواء بسواء.

ومن جهة أخرى، فإن ازدهار أو اضمحلال العلاقات الأخرى التجارية أو العلمية أو غيرهما، وإن سارت في جملتها صعوداً وهبوطاً مع حركة الصراع العسكري والسياسي، فإن الأمر لم يخل من وجود استثناءات واضحة فرضتها إما العوامل الجغرافية مثل القرب والامتداد المكاني أو الاعتبارات الحضارية والتاريخية مثل الامتداد الزماني أو اعتبارات نفعية مختلفة، فإذا ما حاولنا تحقيق فهم أفضل لعلاقتنا بالغرب وعلاقته بنا فعلينا ملاحظة ما يلي:

**أولاً:** تحكم الحضارة الغربية في أصولها قيم الصراع والمنافسة والتحدي والمعاني المرتبطة بها لتشكيل بنية أفراده الفكرية وتصوغ شعوره الجمعي، وفي ظل الخلفية الصراعية المتمثلة في الصراع بين الآلهة وبين الله والإنسان (في الفكر الوثني الذي لا يزال له حضوره وسيطرته) أو بين الكنيسة والسلطة والمجتمع بشكل ثنائي أو مركب أو بين الطبقات الاجتماعية المختلفة وحتى داخل الأسرة، فإن الصراع يبقى قائماً ومبرراً وإن اتخذ طابعاً مغايراً بعض الشيء من أجل تحقيق الذات في مقابل الآخر «الشريك» حتى ولو على حساب المجموع، بل إن مثل هذا الصراع يمتد داخلياً ليصبح الفرد في حال صراع دائم مع ذاته ومع محيطه الاجتماعي من أجل تحقيق إشباعات مستمرة ومتجددة غير محدودة ولا نهاية لها.

ويستهدف هذا الصراع المستمر جعل الأفراد وبشكل دائم في حال توتر حفزي واستنفار شعوري يعد من دعامات التقدم الاقتصادي، فالصراع بين الأفراد أو الطبقات من أجل تحقيق أكبر قدر من المصالح أو المنافع التي تضمن تحقيق أكبر قدر من الإشباعات والامتيازات، وهو ما يعني أن المصلحة أو الرغبة هي المحدد للسلوك تجاه الآخرين في حركة الصراع، وهو ما يمتد ليحكم الشعور الجمعي ويحكم الدول والسياسات في تحركاتها على أرض الواقع المنظور تجاه الآخرين.

**ثانياً:** تدعم القيم الصراعية وبشكل مستمر الاتجاه الانشطاري التصادمي في بنية العلاقات المجتمعية عامة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، وفي الوقت ذاته تفرض قيام الكثير من التحالفات البيئية والمتقاطعة لتأمين المصالح والأهداف الخاصة، وحيث إن مثل هذه الأهداف والمصالح هي دائماً وأبداً في حال تغير مستمر فإن شبكة العلاقات التي تؤمن من خلالها هذه الأهداف والمصالح تصبح - وبشكل دائم - في تغير مستمر هي الأخرى، ويظل بقاء أي تحالف استراتيجي مرتبط بما يحققه من مصالح لأطراف التحالف، وإلا فإن مبرر وجوده يتلاشى «وهو هنا إما أن يصبح بؤرة ساكنة كاحتياطي استراتيجي لتحالفات ممكنة عند الضرورة أو يصبح بؤرة نشطة مضادة بدخوله في أحلاف مضادة للأولى» وهو ما يعني أن تظل العلاقات والنظم المجتمعية في حال من الحركية المستمرة، سواء في اتجاه الاندماج من أجل تحقيق أكبر قدر من المصالح أو المنافع المشتركة أو في اتجاه الانشطار الناتج من تصادم

وتعـارض هذه المصالح أو ظهور فرص بديلـة تحقق نفعاً أكبر، وبالتالي تصبح أجدر بالتحالف معها.

**ثالثاً:** نظراً لارتفاع معامـل «الانتروبيا» (الفوضى) فـي العلاقات والبنى المجتمعية المؤسسـة على المصالح المنظورة وتفككها المسـتمر، فإن وجود عامل حفزي مضاد يؤدي باستمرار لامتصاص التوتر الداخلي أو البيئي وتخفيف عبء التصادم المسـتمر عن النظم والمجتمعات الغربية سيبقى مادامت فلسفة الصراع والتصادم هي الحاكمة لبنيته الفكرية والشعورية، وبالتالي فإنها تمثل عامل الحفز المسـتمر لقيمه وسلوكه، وهو ما يفرض وجـود قوى محايدة داخـل بنية النظام من جهة، ووجـود مصدر للتوتر الحفزي الخارجي يعمل بشـكل مسـتمر على حفظ اسـتمرار وتماسك النظام ضد فوضاه الداخلية بتوجيهها إلى بؤرة خارجية من جهة أخرى، ومـن دون ذلك فإن مثل هذا النظام يبقى قابلاً للتآكل والتفتيت أو حتى الهدم والتدمير الذاتي، وهـو ما عبَّر عنه بعض المنظرين بحاجة الغرب المسـتمرة والدائمة لوجـود عدو ما حتى إنه إذا لم يجده فسـوف يقوم بصناعتـه، ولا يهم هنا أن يكون مثل هذا الوجود حقيقي أو تصوري، إذ إن مثـل هذا العدو يؤدي في جميع الأحوال دوره المنوط به بتحقيق أكبر قدر من التلاحم في وجه الآخر، فلابد من وجوده على أي حال.

**رابعاً:** يحقق الاتجاه بتصدير المشـكلات الداخليـة وتقديم التحديات التي تواجـه النظام لتأخذ مركز الصـدارة باعتبارها قاطرة للنهضة والتقدم نظـراً لدورها الطليعي والتقدمي الذي يجب دعمه وتشـجيعه في فكر

وسلوك النظم والثقافات المضادة للفلسفة والفكر الغربي دور الدرع الواقي أو صمام الأمان بالنسبة للنظم والفلسفات الغربية، وبعيداً عن وجهة النظر التي ترى في الغرب الغاية والقمة العظمى للارتقاء والتقدم الإنساني، فإن لتصدير التوتر والصراع كثير من المكاسب المباشرة وغير المباشرة سواء في المدى القريب المنظور أو في المدى البعيد، والفارق هنا فارق درجة كما هو فارق في الاتجاه.

ففي حين ينظر من وجهة النظر التي تتبنى الرؤيا الغربية إلى هذه التوترات والصراعات المفروضة على البنى الفكرية والسياسية للمجتمعات الإسلامية بصفة خاصة كنوع من التضحيات الواجبة والغريبة التي لا سبيل إلى عبور كهف التخلف من دونها، فإن مثل هذه التوترات المصدرة من الغرب والمروجون لها في الداخل تعمل على حفظ القدرة المستمرة للغرب على المبادأة وحصر الآخرين في دائرة رد الفعل، كما أنها تحفظ للنظم الغربية قدرتها المستمرة على الشعور بالزهو الناتج من الصورة التي تقدم بها هذه النظم وسياساتها وأيديولوجياتها كرموز متفردة يسعى الجميع للحاق بها والارتشاف من معينها، وهو ما يجعلها فوق مستوى النقض الرافض، ولكن أي مراجعة أو نقد تبقى دائماً داخلية أو شبه داخلية تقوم على الأسس والمعايير عينها التي تحفظ للغرب ونظمه صورة المتفوق والمتفرد الذي يسعى الجميع للحاق به وتقليده.

وكما يحمل هذا البناء الكثير من التحديات فإن ميزته الكبرى أنه يحمل الكثير من الفرص لمن يريد ويستطيع السعي لاقتناصها، إن بنية المجتمعات

الغربية الفكرية والاجتماعية «لا السياسية والإعلامية» سوف تبقى مفتوحة قابلة دائماً للاختراق إذا أمكننا توظيف إمكاناتنا ومواردنا المالية والبشرية لتصبح جزءاً من شبكة المصالح الاستراتيجية للجماعات المختلفة هناك، النخب الفكرية والأقليات العرقية المختلفة والأقليات الإسلامية بشكل خاص، فحتى بعد قوانين الحريات والسياسات والتشريعات المناهضة لحرية الحركة، بل وللوجود الإسلامي في الغرب سوف تبقى هذه الجاليات الإسلامية الأقدر على مخاطبة الغرب من الخلفية الفكرية ذاتها والأكثر قدرة على تفهم عوامل التوتر والصراع في مجتمعاتها المحلية، والأسهل علينا التواصل معها بشكل سريع، ثم إنه واجب تناسيناه لزمن طويل أو سعينا لتصدير مشكلاتنا وإضافتها إلى مشكلاته.

**خامساً:** يؤمن ذلك «إيجاد بؤر للتوتر والصراع داخل المجتمعات الأخرى» بروز الغرب كشريك استراتيجي رئيس. إن لم يكن وحيداً. لكل النظم السياسية والفكرية التابعة باعتباره الحليف الأكثر خبرة وتقدماً، على طريق لا يزالون وسيبقون دائماً، على بدايته التي تحددها لهم المنطلقات والمعايير الغربية ذاتها التي تعمل على دعم هذا الوضع وبقائه بشكل مستمر، وهو ما يقود كخطوة تالية ومهمة إلى التدخل التقويمي الذي يحدد الغرب من خلاله أي الأيديولوجيات أو المذاهب بل أحياناً الأفراد والنظم. يبقى وأيها يرحل، أيها يعد على الطريق الصحيح وأيها يعد على الطريق الخطأ، وبذا تبقى المعيارية الغربية حاكمة ومحكومة في الوقت ذاته، وحيث إن فلسفة الصراع والتصادم هي التي تحكم علاقات

الغـــرب بذاته وبالآخرين، فإن مثل هذه المدخلات تبقى ضرورية وتهدف فـــي جوهرها إلى تأمين مصالحه القائمة والظاهرة ودفع أضرار ممكنة أو محتملة.

وكما أن تماسك وقوة النظم الغربية تفرض محاولة مستمرة لتقليل معامل التوتـــر «الفوضى» الداخلية للنظم المحلية، فـــإن تصدير مثل هذه التوترات للثقافـــات والنظم الأخرى، والدفع بها لتصبح حاكمة لها أمر له فوائد عدة، فعملية الصراع في مجتمعات وثقافات لا تمتلك قنوات تفريغ وآليات دفاعية تقود بالضرورة إلى خلل في بنية النظام، كما يمكن من خلال الســـعي لدعم بعض القوى والأفكار التدخل المستمر لإحدث تغيرات مطلوبة أو منع تغيرات غير مرغوبة، فضلاً عن تأمين سعي الآخر المستمر للاستعانة بالغرب سواء كخبير أو حليف استراتيجي ومن الظاهر أو من الباطن مع المنشقين والنظم البديلـــة المحتملة، وهكـــذا فإن زيادة فوضى النظم الأخـــرى «المعادية حيث إن الفكر الصراعي لا يعرف الســـكون، فمـــن ليس بصديق فإما إنه عدو أو عدو محتمل» يؤمن مصالح الغرب ونفوذه بشـــكل مستمر على المدى البعيد ويحفظ له تقدمه النســـبي كقوة عظمى أو التدخـــل عند اللزوم لدعم ذلك والإبقاء عليه.

**سادساً:** بخـــلاف المواطن والمفكر الغربي، وحيـــث إن النظم الأخرى تنطلق من فلســـفات وقيم مغايرة، فإنها تكون مع الوقت أكثر قدرة على النقض الرافض للفكر والفلســـفة الغربية لأنها لا تمثل جزءاً من كيانها وهويتها الوجودية، وهو ما يدفع النظم والفلســـفات الغربية لارتداء أثواب جديدة

(أو يجب أن تبدو كذلك) بشكل مستمر فضلاً عن أنها تقدم في صورة أهداف وقيم إنسانية عامة وغايات بشرية يجب على الجميع السعي - بشكل دائم ومستمر - لتحقيقها والوصول إليها، وكمسلمات فوق مستوى المراجعة أو النقد، وتلعب نظم الإعلام والدعاية الغربية، دورها في الترويج لمثل هذه الأهداف ومن يمثلونها ويدافعون عنها هنا وهناك، ولا يخفى هنا أثر شبكات المصالح بين المنظرين وصانعي القرار والصفوة في المجتمع الغربي في الترويج لنظريات التنمية وصراع الطبقات والسماوات المفتوحة وغيرها في أوقات مختلفة.

**سابعاً:** في مثل هذه الظروف فإن النظم الغربية تؤمن مصالحها الذاتية في اتجاهين أحدهما داخلي والآخر خارجي وعلى مستويين متباينين في السلوك والخطاب الموجه للجماهير أو النخب وبوسائل وطرق شتى، فمن جهة يؤمن الصراع الداخلي المستمر بقاء النظام «ومصالح النخب المرتبطة به» قدر الإمكان خارج دائرة التفكيك المحتمل لتأمينه شبكة المصالح الداخلية والاحتفاظ بها في أفضل مستوى أداء ممكن، بحيث يضمن استمرار الصراع وحفزه وتأمينه من جهة، ودفعه وتوجيهه من جهة أخرى، إلى جانب بقاء النظام يعمل كدرع واق في مقابل العدو.

الآخر المتحفز والمتربص دائماً للمصالح والمكاسب التي حققتها مسيرة النظم والحضارة الغربية. الحاقد على المكاسب المستمرة للمنافسة الحرة ومسيرة الديموقراطية والرفاهية في المجتمعات الغربية، وبذا تؤمن النظم الغربية والنخب المرتبطة بها مكاسبها غير المبررة أمام مواطنيها الذين يتعين

عليهم أن يلهثوا بشـــكل دائم ومســـتمر ومن دون توقف للسؤال أو المراجعة لتحقيق رغبات ومصالح متجددة ودائمة بشـــكل مستمر ولا نهائي وحتى في حال إخفاق بعض النخـــب أو القوى الحليفة لها فإنها تدفع الثمن بتقديمها ككبش فداء، إذ يكون عليها تحمل تبعة الإخفاق وتقديم الضريبة والتعويض اللازمين في هذه الظروف لتأمين بقاء النظام وعدم انهياره، بكشـــف المزيد من العلاقات البينية في شبكة المصالح والتحالفات على مستوى القمة.

وعلى المستوى الخارجي، تقدم النظم الغربية نفسها كصديق يقوم بدعم النظم المســـتبدة الحليفة التي تبدي مرونـــة أكبر في التعامل إزاء مصالحها وقضاياها فتســـتمد كذلك مبرر وجودها من ارتباطها بحليف خارجي قوي يمثل مركز ثقل حركي سياسي داخلياً وخارجياً يؤمن بقاءها ويحسِّن بشكل دائم من صورتها أمام الشـــعوب التي تآكلت شـــرعيتها، وتبين فسادها لها، وبالنســـبة للشـــعوب ذاتها فإنها تظهر بصورة المراقـــب المدافع عن حقوقها وقضاياهـــا ومصالحهـــا المختلفة في مقابـــل النخب التـــي يرتبط تحالفها الاستراتيجي بالشريك الغربي بصورة متغطرسة ومتعالية في وجه الشعوب المغلوبة على أمرها.

وهنـــا يأتي الدفاع عن حقوق الإنســـان والأقليات ومكافحة كل أشـــكال الجريمة وصور الفساد والتمييز المختلفة لتمثل أوراق ضغط وعصا يلوح بها من وقت لآخر في وجه بعض النظم لضمان تســـيير مصالحها بالشكل الذي يلائمها، وبالنســـبة للشـــعوب المغلوبة على أمرها «التي عادة ما تكون أسيرة صورة بذاتها تروج لها النظم ولا يسعى ميثاق المصالح والتحالفات المشتركة

لكشف زيفه وادعاءاته الكاذبة وما يصور في الغرب لا يتاح للجماهير في الداخل الاطلاع عليه غالباً باستثناء الصفوة التي يتم تهميشها وتجاهلها» فإن شعورها بوجود من يستشعر قضاياها ويهتم بها ويقف مراقباً مدافعاً عن آدميتها وحقوقها - في وجه القوى الداخلية المتغطرسة والمتعالية - يتخذ بدوره كذريعة وورقة ضغط في وجه النظم المستبدة التي تجد نفسها في النهاية بين فكي الرحى فتختار في الأغلب الرضوخ للضغط الغربي الذي يستطيع حمايتها ودعم بقائها وتأمين مصالحها أو توفير الملاذ الآمن لها عند الضرورة.

**ثامناً:** تستدعي المحافظة على الوضع القائم الذي يجعل للنظم والفلسفات الغربية وجودها المرجعي والرئيس على جميع المستويات الداخلية والخارجية، وجود شبكة عنكبوتية من الارتباطات لتأمين مستويات متباينة من المصالح الاستراتجية التي قد لا تخضع على المدى المنظور للمراجعة أو الجدل السياسي، وفي الخارج فإن الارتقاء في هرم النخب يعني بشكل متزايد ومستمر ارتباطاً أكثر بالمركزية الغربية وهو ما يضمن صياغة التحركات المضادة للنظم الأخرى بما يؤمن الوضع القائم لعدم ظهور شبكة من الارتباطات المناوئة وفي حال عدم القدرة على تفكيكها فإنه يسعى لشل فاعليتها سواء عن طريق النفوذ المتغلغل داخل هذه الأبنية ذاتها أو بتفويضها من الداخل بدعم المصالح المضادة أو باستخدام سياسة الانقلابات العسكرية والحروب الإقليمية أو حتى الأهلية، وبشكل أقل الحروب الاقتصادية.

وفي حال فشل جميع هذه الوسائل فإن التدخل المباشر يأتي ضرورة بعد دعم إعلامي وحشد سياسي سواء الداخلي أو على المستوى الدولي.

**تاسعاً:** في ظل المناهضة المستمرة للشبكات البديلة والفرعية من الارتباطات والتحالفات المناوئة للسيطرة الغربية (سياسياً واقتصادياً وتكنولوجياً وعلمياً وإعلامياً إلخ...) ومن البديهي أن من يدرك القواعد ويجيد اللعب يسعى لتفادي ذلك كله وتأمين بقائه ومصالحه بالتحالف مع الشريك الأكثر قوة ونفوذاً وتأثيراً وهو ما يعني أن يصبح الغرب وعلاقاته به هو الخيار الاستراتيجي بالنسبة له، فتبدأ سلسلة من التنازلات البسيطة وما إن تبدأ عجلة الدوران السالب في العمل باتجاه المصالح الغربية حتى تستقطبها دائرة نفوذه القوية سواء بالمركز الغربي ذاته - تحويلات الأموال وهجرة العلماء والمبدعين واستقطاب الموهوبين - أو بالمراكز الفرعية المتغلغلة داخل بنية النظم التابعة ذاتها.

وبذا يتم توظيف النظم والمؤسسات والمنظرين للعمل على ترسيخ ودعم الوضع القائم وتبريره والترويج له بحيث يصبح الوضع الحاكم مع الوقت. وسواء أكان هذا التوظيف إجبارياً أم طوعاً وسواء أكان مباشراً أم غير مباشر فالمهم أن تصبح جميع العوامل في دائرة عملها خاضعة للنفوذ الغربي داعمة لمصالحه.

لقد تعلَّم الغربي من خلال الصراع المستمر أن يناور ويراوغ بشكل مستمر بحيث يستطيع أن يربح دائماً من كل الظروف سواء التي يتسبب فيها أو التي

تفرزهـــا الأحداث هنا وهناك، وتعلم كيف يجيد توظيف كل العوامل لخدمة أهدافه ومصالحه، وتبقى التبعة على من يعطيه الفرصة السانحة التي تعلَّم جيداً كيف يجيد اقتناصها إن لم يستطع صناعتها.

**عاشراً:** يعتمد النجاح في الخروج من دوامة المركزية الغربية على القدرة على فهم وتفكيك شـــبكة المصالح المرتبطة بالمركز الغربي بشكل هادئ وفاعل وســـريع في الوقت ذاته، فالهدوء لا يعني البطء ولكن تخطيط الأولويات للمهم فالأهم بحيث يمكن إقامة شـــبكة من الارتباطات والمصالح البديلة والممكنة، وهو ذاته ما يســـعى النفوذ والفكر الغربي لعرقلته وإدراك كون النظم والمؤسسات، بل الشعوب والمجتمعات الأخرى خاضعة للتوجيه غير المباشر، بحيث تضطر لأخذ القرار بشكل يتواءم والمصالح الغربية بحسن نية في أحيان كثيرة، يجعل اســـتراتيجية المناورة والجدولة المستمرة لكل المزاعـــم والأطروحات الغربية - ذات المظهـــر البريء والقناع الصديق - بهدف الدفع بها في اتجاه التحليل والمناقشة المتبصرة أول طرق الإدراك الواعي في ســـبيل الخـــروج من كهف النفوذ الغربي الذي يســـعى للدفع المســـتمر لأطروحـــات وقضايا تبـــدو دائماً جديدة لجعـــل الآخرين في حال دائمة من رد الفعل المتلقي وما إن تســـتنزف الجهود في بيان كذب وادعاءات أطروحة أو فكرة ما حتى تثار أخرى، وهكذا دواليك.

وتأتي البداية عندمـــا يقرر بعضهم التوقف عن الركض للتأمل والتفكير الهادئ، إلى أين: وإلى متى؟ ولماذا؟ وبعد ذلك يتوقف النجاح على اســـتجابة وجديـــة الأطراف المناظـــرة (الضحايا الآخرين) وســـرعة رد الفعل الواعي

والمرونة الفكرية المرتكزة على التسامح إزاء النفس وإزاء الآخرين الذين خضعوا للخديعة ذاتها وكانوا على جانب كبير من استجاباتهم، مثلنا تماماً مجرد وسائل لتحقيق غايات قوة أكبر تسعى للدفع المستمر لبقاء الحال على ما هو عليه.

إن إدراك كون إذكاء الانطباعات السلبية الممتدة بما يعوق تكون شبكات من المصالح البديلة للنظم والفلسفات الغربية هدف يتم دعمه وتأكيده باستمرار ومن خلال شبكات قوية للمصالح والنفوذ المتغلغل في نظمنا ومجتمعاتنا ذاتها هو أمر قائم يجب العمل وبشكل دائم على لفت الانتباه إليه من جهة، وتقبله والتعايش معه بل العمل من خلاله حتى يمكننا تجاوزه بالخروج من دائرة النفوذ والمركزية الغربية من جهة أخرى، وهو أمر لا مفر منه، وليس هناك في المدى القصير خيارات بديلة أخرى، وهو ما يعني أن علينا العمل في الدائرة ذاتها ومن خلال المعايير والاستراتيجيات نفسها للوصول إلى أهداف مختلفة.

وهو ما يعني أننا يجب أن نعمل في اتجاهين شبه متضامنين وبكفاءة عالية وقدرة على المراوغة والمناورة أي أننا يجب علينا مضاعفة جهودنا والسعي الدائم لإيجاد طرق ووسائل جديدة وقنوات أقل راديكالية وغير مستهلكة. أن نصبح أكثر قدرة على إقامة مد جسور من التفاهم والثقة المدعومة بروح التسامح إزاء أنفسنا وإزاء الآخرين الذين لا تقل آلامهم ومعاناتهم عن آلامنا ومعاناتنا، أن نتحرك بخطوات واثقة، وإن كانت بطيئة، حاسمة وإن كانت هادئة نحو بعضنا بعضاً وحتى إذا لم تنجح وسائلنا في

المـــدى القصير في إيجاد مثل هذه القنوات والروافد البديلة، فإنها بالصدق والجدية والمثابرة يمكن أن تقوم مقام الوجود الموازي والمتحدي الهادئ الواثق والبديل المستقبلي على المستوى الداخلي سواء المحلي أو الإقليمي.

إن البنـــاء دائماً صعـــب ويحتاج لجهود كثيرة، ولكنـــه ضروري ولا يمكن الحياة من دونه.

• • • • • • •

# الحوار الحضاري في سياق العولمة
# جدلية الغالب والمغلوب (*)

عبدالعزيز انميرات
أستاذ الفكر والعلوم الإنسانية
كلية الآداب - فاس - المغرب

(*) الوعي الإسلامي عدد «٤٦٢» صفر- ١٤٢٣ هـ- يناير - فبراير ٢٠٠٤ ص ٢٤، وعدد ٤٦٣ -ربيع أول -١٤٢٥ هـ/ ابريل - مايو ٢٠٠٤، ص: ٥٠

### ١- حوار الحضارات من داخل أسئلة الضعف والاستضعاف

لا بد بدءاً من التأكيد على أننا لا نرثي حال الأمة التي شرَّفنا الله بالانتساب إليها، أمة الخيرية والشهادة على الناس؛ لكن حرقة أسئلة الضعف والاستضعاف في داخلنا تولد انفجار النقد الذاتي الذي هو أساس التصحيح في زمن غلبة الغير وهبوطنا الحضاري المخيف، إذ كلما أقفلت أمة من الأمم بابه إلا أصيبت بعمى الألوان، فيظهر لها الواقع كما تعيشه في عالمها الافتراضي البعيد عن واقع الحال؛ أسئلة تختزل حجم الرغبة في تجاوز عتبة هذا الهبوط بشكل يمنحنا إمكانات الوقوف في وجه ثقافة العولمة وما تنتجه من خطابات الإكراه الحضاري مثل: حوار الحضارات والثقافات.

من هنا التأكيد على أن الهبوط الحضاري، بما هو تخلف وانحطاط، لن ينفع الكلام فيه عن مقدرات الأمة الطبيعية والبشرية لوحده، بقدر ما ينفع فيه - كذلك - إعادة تصحيح العلاقة بالذات، تصحيحاً ينم عن واقع مريض يئن تحت وطأة الأوجاع المتتالية التي أصابته جراء غلبة الغير في زمن العولمة والإكراه الحضاري الذي يفرض علينا أسلوباً محدداً في الرؤية والتعامل، ناهينا عن الطريق المختصر للالتحاق بذيله، ما دام خطاب العولمة الجديدة يبشر بعالم أفضل، وما دام نظامه يدافع عن حقوق الشعوب، وما دامت سياسته الخارجية تدفع بالأمم والشعوب المغلوبة على أمرها باتجاه القبول . كلياً . بخطاب المطابقة بدل الإصرار على الإبقاء على خطاب الاختلاف، والدفاع . من ثم . عنه بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، لعل من أبرزها وضوحاً

وأخطرها أسلوباً تفجير الأجساد في عمليات تصفها ثقافتنا بالاستشهادية، في حين تصفهـا ثقافة العولمة بالإرهابيـة أو الانتحارية، في محاولة للفت الانتباه الدولي إلى أن ثمة رغبة في العيش خارج دائرة الإملاءات السياسية التي لا تدع فسحة، ولو بهامش الظل، أمام الآخر كي يقول كلمته، ويعلن عن فلسـفته ورؤيته للحياة، وينظر بعينيه هـو بدل النظر بعين الآخر، ونظاراته التي لا ترينا الحق حقاً، وترشـدنا إلى اتباعه، والباطل باطلاً، وتحذرنا من مغبة عدم اجتنابه؛ بقدر ما توجه العيون باتجاه واحد تظهر من خلاله - في الأفق - خطورة التصدي لجبروت نظام العولمة الذي يجلس جاثماً فوق أنفاس الشعوب المستضعفة والمكرهة على القبول بالأمر الواقع الحضاري الجديد، الذي تم تقديمه لنا في نسخة تظهره متعالياً وأن لا قدرة على تغييره أو حتى تعديله؛ لأنه واقع تمخض عن تجربة حضارية ألفت تعدد الأقطاب، وفسحت المجـال لاحتضان خطاب الرؤية الأحادية، والسياسـية الواحدة، وذلك بدل التعامـل مع هذا الواقع من موقع ما تقتضيـه أبجديات التعايش والتعارف والتفاهم والتكامل بين مختلف الشعوب والأجناس البشرية.

## خرافة الحوار والتعايش بين الغالب والمغلوب

يتأسـس على ما سـبق، أن ثقافة التعايش الحضـاري لا تؤمن بإلزامية الوجهـة مـا دام في الأمر اختـلاف المنطلقات، وما دام الإنسـان - مطلقاً - يتميـز عن باقـي المخلوقات الحية بالعقل المـدرك والمجتهد؛ ذلك أن أي محاولـة للدفع بـه باتجاه القبول بما فرض عليه قسـراً لا يولد إلا النتائج السـيئة، وردود فعل قوية ستكون لها نتائج وخيمة إما في العاجل أو الآجل؛

كيف لا، ومن أصول عقيدتنا تعلمنا أن لا إكراه في الدين بعدما تبين الرشد من الغي من جهة ، وأن الالتزام بما فرضه الله علينا يحمل في داخله ثقافة الرحمة والمحبة والأخوة والتعارف بين الشعوب والقبائل والأجناس، من جهة أخرى.

فما فسدت الحياة الدنيا إلا بفساد من يعمرونها بما كسبت أيديهم، وتحول الإنسان، الذي جعله الله خليفة في الأرض، إلى وجهة مخالفة تمام المخالفة لتلك التي اختارها الله له ابتداء، فخرج عن طاعته، فكان حتماً أن يصاب بداء فقدان المناعة ضد كل عوامل الإغواء التي تفسد بصيرته وتصيب لبه بما يكفي لتركه تائها في دوامة لا متناهية من الحيرة والقلق، على الرغم مما حققه من إنجازات مادية هائلة ومشهودة يقف العقل المبتكر لها أحياناً حائراً؛ وما كان له أن يحتار لولا تخليه عن منهاج الله وشرعته الأولى التي تم استبدالها بشرعة بشرية أعلنت منذ زمن موت الإله.

فكيف بنا نقبل بخطاب ثقافي صادر من باطن العولمة الجديدة، يدعونا أصحابه إلى المساكنة الحضارية وقد دمروا أصل الحوار: الجانب العقدي؟ وكيف لنا أن ندخل في سلسلة الحوارات معهم ونحن أمة تستهلك قوتها في ترميم الذات وجمع الشتات لتتوحد داخلياً قبل أن تجلس أمام الآخر لتحاوره؟ وكيف لنا أن نتحاور في الثقافات وخطاب الآخر ما زال مسكوناً بنزعة الاستعلاء ومؤسساً على قاعدة فلسفة المركزية الغربية التي لا تعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها؟.

إننـــا نعلم علم اليقين أن الدعوة إلى الحوار الحضاري في زمن الهيمنة المطلقـــة لخطـــاب العولمة الجديدة مـــا هو في واقع الأمـــر إلا ذريعة لجر الشـــعوب الممانعة إلـــى القبول بخطاب يدفع باتجاه الاســـتفراد والهيمنة، ظاهـــره يلح على ضرورة الحـــوار والتعايش، وباطنه يختـــزن صوراً قاتمة عن هذه الشـــعوب، وبخاصة منها الشعوب الإسلامية، لا لشيء، إلا لكونها ترفـــض رفضاً باتاً كل سياســـات التهجين والتدجين، وإفراغ الشـــخصية الحضارية للمســـلمين من روح العقيـــدة الصحيحة التي تحفظ عليهم قوة الانتمـــاء وتماســـك البناء، وتـــرد عليهم - في الآن نفســـه - كيد الأعداء، وتجنبهـــم نفاق البلداء، وشـــماتة الجبناء من هذه الأمة، الذين تقاعســـوا وتخاذلوا بما يكفي لكبح كل مبادرة تنشـــد التغيير من داخل فهم يتأســـس على حرية الإنسان من داخل مسؤوليته.

إذ كيف له أن يكون مســـؤولاً عن أفعاله وهو يفتقد لشـــرط الحرية، تلك التي لخصها عمر بن الخطاب. رضي الله عنه. حينما تساءل ملخصاً رسالة الإسلام في العلاقة بين الأفراد، مهما اختلفت طبقاتهم وانتماءاتهم ومســـؤولياتهم، عن سبب استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

لنجمل الكلام الســـابق في أن المطلوب من الأمـــة أن تدرك أن دخولها حلبـــة الحوار الحضاري مـــع الغرب المعاصر، في ظـــل الوضعية الراهنة، مخاطرة ليس بالجانب الثقافي فقط، ولكن بمصير الهوية كذلك؛ إذ يظهر جليـــاً للمتتبع أن الحـــوار لا يكون بين طرفين أحدهمـــا يعيش على إيقاع الغلبـــة، والآخر ما زال يبحث عن أســـباب تخلفه وهبوطه الحضاري الذي

أصيب به منذ قرون، بل وما زال يكرر الأسئلة النهوضية التي صاغها مثقفو النهضة العربية الأوائل منذ أزيد من قرن.

وعليه نقول: إن فعل الحوار بما هو خيار أصيل في ثقافة التعايش بين الشعوب والأمم لا يكون بين غالب ومغلوب، بين قوة وضعف، وبين ذات حققت كيانها وذات لا تزال تجتر الهزائم وتكرر الأخطاء وتعاود التراجعات، وبدل الدخول في حوار مع الآخر، والقبول بهذا العرض الذي نشك في مصداقيته وشرعيته، على الأمة أن تقدم على ذلك خيار المواجهة ليس مع الغير، ولكن مع الذات أولاً، دفعا بها باتجاه الخروج من أزمة الهبوط الحضاري الخطير الذي تعيشه راهناً من جهة، وترتيب دائرة العلاقات المتعددة الأطراف فيما بيننا أولاً لنكون في دائرة الضوء بالحجم المطلوب الذي تقتضيه طاولة الحوار مع ثقافة تتأسس على نزعة الاستعلاء منذ القديم.

ويزداد إشكال الحوار تعقيداً كلما ربطنا واقع هذا الهبوط بواقع الهيمنة الغربية العالمية في ظل خطاب العولمة بكل مستوياتها. ولعل هذا ما جعلنا نصف طبيعة الحوار بالفخ الذي تجُرُّ إليه الأمة للقبول بخيار ثقافي لن يبقى على هويتنا وشخصيتنا الذاتية والحضارية. فعن أي حوار نتحدث في زمن العولمة؟

من هنا التأكيد على مسألة أساسية ، وهي أننا لا نفكر في إقصاء مفهوم الحوار الحضاري. الثقافي من قاموس علاقتنا بالآخر؛ بقدر ما نلح على أهمية الأخذ بعين الاعتبار أن الضرورة تقتضي التأكيد على التعددية

الثقافية والاعتراف باختلاف الهويات الثقافية، حتى لا نكون عرضة للقبول بأطروحة الثقافة الكونية الواحدة التي تقضي على التميز وتلغي الاختلاف الذي به تكتمل خصوصية كل أمة من الأمم.

وما تأكيدنا على هذه الضرورة الملحَّة، ونحن نتساجل بخصوص مختلف الفقرات المكونة لأجندة الحوار الحضاري . الثقافي ، إلا من أجل التأكيد . مجدداً . على أن الإيمان بهذا الأصل سيمنح الأمم المستضعفة والمغلوبة على أمرها، القدرة على تحقيق نتيجتين مهمتين ؛ تتعلق أولهما بتدعيم مسار الانعتاق الكلي من إسار التبعية الثقافة الغربية ذات البعد الاستعماري، والعيش . من ثم . في فضاء الحرية والاستقلال على جميع المستويات؛ في حين ستدعم ثانيهما . من جهتها . مطلب الانعتاق على المستوى النفسي بما يكفي لإكساب الذات القدرة على استرجاع القابلية على التفوق والتطور بدل الإبقاء على ثقافة القابلية على التخلف والدونية.

وعلى هذا الأساس، سيصبح الاعتراف بالتعدد الثقافي . من قبل الجميع . مقدمة أساسية لتحقيق التعايش المطلوب بين مختلف الشعوب، في عالم يكره فيه القوي الضعيف على القبول بفلسفته ونموذجه الثقافي، الذي لا يخدم سوى أغراضه السياسية ويحقق نماءه الاقتصادي وتوسعه القومي.

## من مقدمات الحوار

### الندية والتكافؤ لا التنميط والتمييز العرقي

إن أي حديث عن الحوار الحضاري. الثقافي في ظل هيمنة الخطاب العلني والسري للعولمة، لابد وأن يستحضر أصحابه أن الأمر يستدعي التأكيد على ضرورة استحضار مفهومين أساسيين من جهة، وتغييب مفهومين آخرين من جهة أخرى. لابد من استحضار مفهومي الندية والتكافؤ، وتغييب مفهومي الهيمنة والاختراق، الشيء الذي يبين أن ثمة حاجة ملحة لاستحضار ثلاثة مفاهيم أساسية تحقق جدلية الأنا والآخر، وتحفظ الهويات والخصوصيات، وهي: مفهوم الذاتية ومفهوم الحرية ومفهوم التعددية؛ وهي من جملة المفاهيم التي تمنع حوار الحضارات من التحول من إطار الإثراء والتطوير والتكامل إلى إطار الإلغاء والإقصاء والتجزئة، الذي يلتف حول خصوصيات الشعوب والثقافات من أجل الحفاظ على خصوصية ثقافة واحدة ومطلقة؛ الأمر الذي يبين أن ضرباً محدداً من الفكر هو الذي يقف وراء الأطروحات المختلفة لحوار الحضارات والثقافات التي تتزايد بتنامي الشعور بضرورة اختراق الشعوب بإعادة إنتاج ثقافتها، وتجديد صياغة تشكيلاتها الاجتماعية والفكرية والتربوية والإعلامية والسياسية والاقتصادية، بما يفسح المجال أمام التوحد بداخل خطاب الواحد الذي هو الغرب الليبرالي.

ولعل هذا الضرب من الفكر هو جزء من التفكير الإيديولوجي الاستعماري الذي يسعى إلى إعادة هيكلة الخريطة العامة للعلاقة بين الشعوب على

أســـاس ترسيخ فلســـفة التهميش بدل الإبقاء على فلسفة التكامل، وفلسفة الاستغلال بدل فلسفة التعاون.

إن هـــذا التحول يظهر جلياً إذا ما اســـتحضرنا . هاهنا . التحول الكبير الذي لحق بالنموذج الحضاري ذي النزعة الليبرالية، إذ أصبحت الحضارة الرأسمالية في عصرنا الراهن، وكما يقول يوسف سلامه، «تتمتع بقدر أكبر من الكلية والشـــمولية بعد أن حل فيها العقل محل العاطفة، وألَّه الإنســـان نفسه، وحلت العالمية أو الكونية محل القومية أو الوطنية. وهكذا ظهر الإنسان في هذه الحضارة باعتباره مركز العالم، وظهرت الحرية والإخاء والمســـاواة على أنها القيم الأساســـية التي تضمن للإنســـان الفرد مركز الصدارة في العالم والمجتمع. كما ظهرت الليبرالية في قلب هذه الحضارة على أنها الأداة التي تضمن للإنســـان الفرد التعبير عن حريته وعـــن كونه مركز العالم من الناحية الفكرية والعقلية. وظهرت الليبرالية الاقتصادية في قلب المشـــروع الحضاري للرأسمالية على أنها ما يتمكن الفرد بوساطته من إشباع حاجاته المادية المباشرة، ومن إشباع إرادة القوة والهيمنة والسيطرة. وقد تبين أنه من الضروري أن يتحول هذا المشروع إلى مشروع عالمي عابر للقارات، ومتجاوز للقوميات والحدود السياســـية، إذ أريد له أن يبســـط ســـلطانه على الكون بأسره، وإن لم يكن هذا ليتناقض مع بقاء المشروع على ارتباط وثيق بالمراكز التي نشأ منها وتأسس فيه». [1]

---

١- يوســـف ســـلامه: «الحضارة بين الحوار والصراع في عصر ما بعد الحداثة»: (مجلة الآداب البيروتية) ع :٣ . ٤ . ٢٠٠٠ . ص: ٦١ - ٧١.

فكيف تقبل الأمة بحوار حضاري . ثقافي مع خصم تاريخي تعلن أدبياته السياسية وتصرفاته الاقتصادية وفلسفته الكونية عن نظرة الاستعلاء والاستفراد؟ وهل من الممكن ضمان مصداقية الحوار مع خطاب يقوم على فلسفة التنميط والتمييز العرقي؟.

لنقرأ جزءاً من خطاب «صموئيل هنتنجتون» الموجه إلى أصحاب القرار الاستراتيجي للولايات المتحدة الأميركية يقول فيه: «إن شعوب العالم غير الغربية لا يمكن لها أن تدخل في النسيج الحضاري للغرب، حتى وإن استهلكت البضائع الغربية، وشاهدت الأفلام الأميركية، واستمعت إلى الموسيقا الغربية، فروح أي حضارة هي اللغة والدين والقيم والعادات والتقاليد؛ وحضارة الغرب تتميز بكونها وريثة الحضارات اليونانية والرومانية والمسيحية الغربية والأصول اللاتينية للغات شعوبها، والفصل بين الدين والدولة، وسيادة القانون والتعددية في ظل المجتمع المدني، والهياكل النيابية، والحرية الفردية».[1]

يظهر من خلال هذا النص . النموذج . والنصوص كثيرة في هذا السياق، أن ثمة فلسفة محددة تحكم الغرب الليبرالي في تعامله مع الذات والآخر، تقوم، في عمقها، على قاعدة تحقيق الذات بكل الوسائل، ومهما كلف ذلك من ثمن، وهو في هذا لا يتوانى عن استخدام المقولة البراغماتية، التي أصل لها ميكيافيلي: «الغاية تبرر الوسيلة» بشكل حرفي.

---

١- انظر ما كتبه في دراسته المثيرة:

The West :unique .not universal - Foreign affairs - v :6

.n :75 - nov. /oct 1996 - page : 28

وعلى هذا الأساس، يحتاج النظام الليبرالي، وخصوصاً في نسخته الجديدة التي تزامن ظهورها مع انتهاء الحرب الباردة وانهيار القطب الإيديولوجي الشيوعي وجدار برلين، أقول: يحتاج هذا النظام إلى ضربين من التوسع: أفقي وعمودي، يتحقق بالأول احتلال المزيد من البلدان، بهذا الشكل أو ذاك، سواء باستعمارها المباشر، أو بالتحكم في سلطاتها السياسية، أو قلب أنظمتها الحاكمة، أو إحكام القبضة على ثرواتها، أو التحكم في سياساتها التعليمية والتربوية والإعلامية. في حين يتحقق بالضرب الثاني، احتلال المزيد من الأسواق الخارجية، واختراق اقتصادات الشعوب المتخلفة أو المنهكة والغارقة في أوحال الديون والقروض، والدفع بالكثير من البلدان إلى فتح أسواقها أمام إنتاجها الذي يغرقها كلياً في دوامة من العجز الذاتي.

وقد تأكد، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أن الولايات المتحدة الأميركية، العمود الفقري للنظام الدولي الجديد، قد استعملت هذا النوع من وسائل تحقيق التوسع عبر إعادة تصنيف العالم باعتماد مقولتي: السلاح والإرهاب، وهو ما تكشف عنه الكثير من الألفاظ من مثل: (مع «أو» ضد)، تلك التي تعكس الصورة القاتمة التي تتكون لدى المجتمع الغربي عن العالم، وبخاصة الإسلامي والعربي منه، والتي قام بإخراجها وتوضيبها فلاسفة السلطة السياسية والاقتصادية الأميركية؛ صورة توهم بأن العالم «المتحضر» في خطر جراء تنامي العداء للغرب من قبل الشعوب المتخلفة التي لا تزال تعيش على إيقاع البربرية والتطرف، وبذلك تضع ـ بتراكم هذا

الخوف الذي ولد في داخلها الكثير من الأمراض النفسية لعل من أخطرها «الإسلاموفوبيا». جداراً فاصلاً بينها وبين باقي الشعوب، وذلك لأنها لا تزال تفترض أن ثمة برابرة ومتطرفين ومعادين للحضارة المادية الغربية، دون أن يدرك الذين رسخوا هذا التصور المغلوط أن أي حضارة، مهما بلغ شأنها ورتبتها في سلم التقدم، هي مزيج من حضارات وثقافات أخرى؛ وهو ما يكسبها طابع العظمة والتميز.

وقد لا نغالي إذا قلنا إن الحضارة الإسلامية كانت من هذا النوع المتميز، لأنها تكونت من أنساق ثقافية وحضارية متعددة، صهرت في مجموعها في بوتقة الأصل الفلسفي الذي تقوم عليه الثقافة الإسلامية، تنتج حضارة آدمية عالمية لا تنظر إلى الآخر إلا بعين الأخوة والرحمة والمساواة والعدل والتعاون. كيف لا وهي المؤسسة ابتداء على قوله تعالى في الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾؛ كما أن الملتزمين بها تربوا تباعاً. على قوله تعالى في الآية ٣١ من سورة الحجرات: ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

وعليه، يتبين أن الحوار بين الحضارات والثقافات، هو في نسخته الراهنة حوار بين أطراف ترى أغلبيتها أن لها مصلحة في ذلك، لكنه في عمقه. حوار يحمل في داخله كل مظاهر ثقافة الصراع بين الفلسفات والأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الحضارات والثقافات، وفقاً لمواقفهم وحاجاتهم ورؤاهم المستقبلية التي ترتبط أشد الارتباط بواقع الغرب الراهن

الذي يقول عنه «هنتنجتون» إنه «في أوج قوته، مقابلة بالحضارات الأخرى. فقد اختفت دولة العظمة الخصيمة له من على الخريطة، والنزاع العسكري بين الدول الغربية أمر لا يتصور، والقوة العسكرية الغربية بلا منافس (...) إن القرارات التي يتخذها مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي، والتي تعكس مصالح الغرب، تقدم للعالم باعتبارها قرارات تعكس رغبات المجتمع العالمي (...) ويدعم الغرب من خلال صندوق النقد الدولي والمؤسسات الاقتصادية الأخرى مصالحه الاقتصادية، ويفرض على الأمم الأخرى سياسات اقتصادية يرى أنها مناسبة».[1]

إن طبيعة السياق التاريخي الذي أفرز أطروحات حوار الحضارات أو صدامها، يمنحنا إمكان رؤية الأشياء في صورتها الحقيقية بدل القبول بما يقدم لنا من صور تقوم على فلسفة التنميط والمغالطة.

فعلى الرغم من أن هذه الأطروحات، التي ملأت الساحة الثقافية والفكرية الراهنة بشكل لافت للغاية من خلال الكتابات المتعددة والندوات الدولية المتتالية، هي في ظاهرها أطروحات ثقافية، فإنها في عمقها تحمل أهدافاً سياسية وتعبِّر عن رؤى استراتيجية لدى العديد من الأميركيين على وجه الخصوص، ولذلك لا ينبغي فصلها عن الإطار السياسي العام الذي يحكم الفلسفة الغربية، وإن كانت تقوم على خيارات ثقافية؛ وقد أجاد محمد صادق فضل الله حينما قال: «لم تكن دعوة «هنتنغتون». وهو

١- صموئيل هنتنغتون: «الصدام بين الحضارات» في: صدام الحضارات (جماعة من الكتاب) ص: ٣٢. مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق. بيروت. ١٩٩٥م.

العالم السياسي البارز . إلى محاصرة الحضارات الأخرى بمختلف أشكال القوة، إلا التعبير الصادق عن روح النسق الأميركي الجديد ذي العضلات الإسبرطية المشدودة. وهو هنا أكثر مباشرة ووضوحاً من «فوكوياما» الذي كثيراً ما لم تسعفه قفازاته المبرقشة والمرقعة بدفع فكري . تاريخي، فلم يخف دورانه حول ثابت اليقين التكنولوجي بكل تمامياته التي لا تسعى لإقامة ستار حديدي خفي في مجال الأفكار والأفعال عند الآخرين فقط، بل للإطاحة بها من الأساس. فهو يتحدث عن انتصار مميز لليبرالية، ويقول: «إن انتصار الغرب لا يتضح قبل الإنهاك الكامل لبدائله وبدائل ليبراليته».[1]

## حوار الحضارات وضرورة تحديد المفاهيم

نحن مع أطروحة حوار الحضارات أو صدامها أمام قاموس من المصطلحات والمفاهيم التي لا ينبغي أن ينسينا فعل الدهشة، جراء بروزها الثقافي، وضعنا الحالي في خارطة الثقافات الكونية من جهة، وراهن هبوطنا الحضاري وتخلفنا في مقابل تقدم هذا الذي يدعونا للحوار الحضاري . الثقافي، من جهة أخرى.

فمصطلحات هذه الأطروحات ومفاهيمها تضعنا وجهاً لوجه أمام مجال يفجر التساؤلات، وينتج الاختلافات على جميع المستويات، ليس بين الأجناس والأعراق وفهوم الأمم والشعوب فقط، ولكن بين أبناء الأمة

---

١- محمد صادق فضل الله: «نظرات في الحضارة والتفاعل الحضاري . مجلة المنطلق الجديد» . ع: ٣ . ٢٠٠١ . ص :٤٦.

الواحدة. تساؤلات تحفر بعمق في تاريخ تكون العلاقات الحضارية بين الشعوب منذ أول لقاء ثقافي بين منظومتين حضاريتين في التاريخ.

وتزداد حرقة الأسئلة، ويتواصل بؤس الاختلافات كلما تم تداول مصطلحات هذه الأطروحات ومفاهيمها باستعمال قاموس ما زالت مفرداته تبحث ـ بدورها ـ عن موقع في خريطة الثقافة السجالية المعاصرة، ومنها على وجه الخصوص ـ مصطلح العولمة الذي يلخص دخول التاريخ البشري برمته، بل الكوني بعامة، في سياق تاريخي أكثر تعقيدا وتشابكا وخطورة في الآن نفسه، ليس من الناحية الاقتصادية فقط، ولكن على جميع الواجهات والمناحي المتصلة بوجود الإنسان وحياته ومعارفه ورؤاه وخياراته، بل أحاسيسه كذلك؛ الشيء الذي يجعلنا، ونحن نقارب قضية حوار الحضارات من داخل الاشتغال بسؤال العولمة، أمام تركيبة حضارية ـ ثقافية جديدة ومعقدة تنذر بالخطر المقبل ما لم يتدارك القابضون بزمام الأمور الدولية أنفسهم، ويتخلوا عن فكرة ترويض المجتمعات والثقافات بالأساليب التي يروا أنها تناسب اختياراتهم وأهدافهم الاستراتيجية البعيدة المدى؛ وقد صدق صاحبا كتاب (فخ العولمة) حينما قالا: «إن العولمة لا تؤدي بالضرورة إلى صراعات عسكرية، إلا أنها يمكن أن تؤدي إلى ذلك إذا ما عجز المرء عن تحقيق الترويض الاجتماعي لقوى الاقتصاد المعولم الهائجة».[1]

فهل ستكون العولمة أداة تدمير للحضارات والثقافات البشرية العريقة ما دام نموذجها يأخذ بخطة توحيد القارات وإلغاء الحدود والحواجز؟

---

١- هانس يتر و هارالد شومان: فخ العولمة. ص: ٣٨. سلسلة عالم المعرفة. العدد: ٢٣٨. الكويت. ١٩٩٨م.

وهل ستكون . إلى جانب ذلك . أحد أشكال محاصرة الثقافات الرافضة للتذويب وإعادة الصياغة؟ أم أنها ستسهل عملية التعايش والحوار، ما دامت في صيغتها الإعلامية والثقافية تعمل على نشر الثقافة العالمية، وإشاعة المعلومات وتحرير استقبالها وإرسالها، بمساهمة من التطور العام للوسائل المعلوماتية الرقمية الدقيقة التي تجعل معرفة العالم برمته لا يتجاوز مجرد لمسة زر من أزرار لوحة مفاتيح الحاسب الشخصي؟

إن المتتبع لعلاقة العولمة بخطابات حوار الحضارات والثقافات، على علم بكون الثقافة في أحد أشكالها سلطة تمارس وظيفتها بشكل غير مرئي لا ينتبه إليها إلا ذوو الإبصار الثقافي العميق، أولئك الذين ينظرون إليها من خلال فعلها في المجتمع، بناء أو هدماً؛ ولذلك تم التركيز عليها لإعادة النهوض الحضاري لأي أمة من الأمم، من زاوية مدركة لأهمية العامل الثقافي في التغيير والبناء.

إننا على علم بحجم المعاناة التي ستتعرض لها الأمم والشعوب المستضعفة، ومنها الشعوب العربية الإسلامية جراء العولمة الثقافية على وجه الخصوص، التي لن تفسح المجال أمام الشعوب كي تعيد إنتاج وعيها بما يسمح لها بالحفاظ على خصوصية الذات، بقدر ما ستكون معيقا جديدا أمام التنمية الثقافية؛ إذ الواقع الراهن يشهد أننا أمة تستهلك . بشكل خطير . ثقافة الغير بموازاة مع الخضوع السياسي لإملاءات الغرب.

وتزداد الوضعية تعقيداً إذا ما استحضرنا . هاهنا . وضع الثقافة المحلية التي تعيش ليس فقط حالات التخلف والهبوط والركود الذي يسلب المرء

حقه في الامتناع، وإنما، كذلك، حالات الارتهان والتشتت والتمزق الداخلي؛ الشيء الذي لا يسمح بوجود قوة ثقافية تكون في مستوى فعل المجابهة الثقافية والحضارية المطلوبة، أو حتى على أقل تقدير، في مستوى الممانعة، تمارس . من خلاله . حق الدفاع عن الأصل الذي ما أن يضيع حتى يندثر الباقي، وهذا ما تسعى إليه، بالضبط، الثقافة الاستعمارية ذات المنزع التدميري، تلك التي تعيش على إيقاع العنف الرمزي ضد الثقافات الأصيلة والعريقة التي ما زالت تستعصي على التذويب.

من هنا نكون أمام ضرورة تحديد المصطلحات والمفاهيم التي تعج بها خطابات الدعوة إلى الحوار، ونحن نسعى جاهدين إلى مقاربة قضية الحوار الحضاري . الثقافي؛ إذ معروف أن ثمة اختلافاً واضحاً بيننا وبين الغير بخصوص الكثير من المفاهيم والمصطلحات العقدية والفلسفية والثقافية، على الرغم من سعي الإيديولوجية الثقافية الغربية . منذ القديم . إلى فرض نمطها وأسلوبها ومفاهيمها علينا، إما بشكل مباشر أو عن طريق من تتلمذوا على أيدي الأساتذة الغربيين من مثقفي هذه الأمة؛ الذين أصيب طرف كبير منهم بداء الإمعة الثقافية التي سلخت وعيهم عن الأصول والثوابت، وقطعت أوصالهم الفكرية، وجعلتهم مجرد مقلدين وناقلين ومروجين للبضاعة الثقافية الغربية بشكل فظ.

وعليه، يكون تحديد مفهوم حوار الحضارات والثقافات شرط البدء، ومقدمة أساسية بالنسبة لنا نحن الذين ننتمي إلى مدار البلدان المتخلفة والمستضعفة، حتى لا يكون حوارنا مع الغير من قبيل حوار الطرشان؛ وحتى

لا يفـرض علينا هذا الغرب نموذجه في منهج الحـوار ومفاهيمه وقضاياه وأهدافـه، كما يفرض علينـا الكثير من اختياراته السياسـية والاقتصادية والإيديولوجية.

فحـوار الحضارات بالمفهوم الغربي، ذي المنـزع الليبرالي الجديد، يدفع بالـكلام باتجاه القبول بفكرة الحضارة العالمية الواحدة، أو وحدة الثقافات، غير أنه من غير الممكن تحقيق هذا الطموح لما لمفهومي التعددية والاختلاف من حضور في نوعية العلاقات بين الشعوب والأمم منذ القدم، كما أنه «لن يكـون هناك للحضارة العالمية معنى إذا لم تأخذ بعين الاعتبار التعبير الحر للثقافات واحترامها المتبادل، وتعبيرها عن حاجات ورغبات الكوكب بأسره، ومـن هنا قد يتحول مفهوم حوار الحضارات إلى مجرد مفهوم «ثقوفي»، إذا لم يكن بعداً حاسماً من أبعاد نظام اقتصادي . سياسي . ثقافي جديد يشكل قاعـدة عالمية لتلبية تلك الحاجات والرغبـات التي هي في صميم وظائف الحضارة أو الثقافـة. بمعناها الأنثروبولوجي الـذي يضم الجوانب المادية والمعنوية في كل واحد. إن حضارة عالمية لابد أن تقوم على تعددية الثقافات واختلافها. فالاختلاف ما بين الثقافات ليس تفاوتا»[1].

فهل يحق لنا أن نتحاور في ظل هذا السـياق الفلسـفي الناظم للثقافة الغربية، التي وإن كانت معاصرة لنا، فإنها لا تزال تختزن في داخلها خلاصة الرؤية العامة لثقافة الاسـتعلاء والتميز وعقلية التهمة والإدانة والتنميط؟.

---

١- محمـد جمـال باروت: «ما بعد المركزية الأوربية: مـن التفاوت إلى الاختلاف». مجلة الآداب. ع: ٣ . ٤ . ٢٠٠٠. ص: ٤٣.

إذ كلما أحس المرء بأنه أرقى من غيره كان ذلك عائقاً أمام تواصله مع الآخر، «وذاك. كما يقول «منذر عياشي». فإنه لا يقيم حواراً، ولا يحفظ جواراً، ويكون مصدر خطر دائماً».[1] وتلك إحدى نتائج التعالي بالاستعلاء والشعور بالعظمة التي من نتائجها السيئة احتقار الآخر وفرض السلطة عليه قسراً. يقول ملخصاً هذا الضرب من العلاقة: «فالمخلوق هو من لا يمكنه أن يتعالى إلا إذا استعلى أولاً على مكونات خلقه وتمرد؛ وحينئذ، فإنه لا يؤكد ذاته بذاته، أي بوصفه مخلوقاً، ولكنه يؤكد ذاته بأن يستعلي عليهم، وهذا يفقده حريته الجبلية واستغناءه، ويجعله على الدوام محتاجاً إلى من سواه لكي يعلو عليه طغياناً وكبراً. ولقد أشارت الحضارات التقليدية إلى هذا الأمر، وصرح به القرآن الكريم في مواضع كثيرة، كان كلامه فيها عن فرعون فرداً، وإلى بني إسرائيل جماعة، من أبرزها وأجلاها».[2]

## الحوار في سياق عولمة الرأسمال الرمزي للشعوب

وحتى لا يقال، في سياق الكلام عن العولمة في إطار حوار الحضارات والثقافات، إننا نصدر، في موقفنا هذا، من رؤية المؤامرة، فإن رؤيتنا شبيهة بالكثير من الرؤى الفكرية العربية التي تنظر إلى القضية. أساس الكلام. من زاوية تحليلية نقدية، لا تعيش على إيقاع التقليد أو الدهشة التي يولدها كل إنتاج غربي جديد.

---

١- منذر عياشي: «نقد المدنيات الحديثة: الوحدة المبدئية وتهجية الحرف الناقص». المرجع نفسه. ص: ٩٣.

٢- المرجع نفسه والصفحة نفسها.

يقول «عبد الإله بلقزيز» معبراً عن وجهة نظر نشاركه في الكثير منها: «ليس صحيحاً أن العولمة الثقافية هي الانتقال من حقبة . ومن ظاهرة . الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافات عليا جديدة هي الثقافة العالمية أو الثقافة الكونية، على نحو ما يدعي مسوِّقو فكرة العولمة الثقافية، بل إنها . بالتعريف . فعل اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات، فيهدر سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها عملية العولمة (...) ليست العولمة . في مفهومنا . سوى السيطرة الثقافية على سائر الثقافات، بوساطة استثمار مكتسبات العلوم والتقانة في ميدان الاتصال، وهي الترويج التاريخي لتجربة مديدة من السيطرة بدأت منذ انطلاق عمليات الغزو الاستعماري منذ قرون، وحققت نجاحات كبيرة في إلحاق التصفية والمسخ بثقافات جنوبية عديدة».(١)

من هنا يتبين بوضوح كيف أن كثيراً من مساعي الطامعين تتجه صوب بؤرة الرأسمال الرمزي الذي تتمتع به كل أمة على حدة، لتعمل على تغيير شكله ولونه واتجاهه، وفصله . من تم . عن أصوله وأرضية تشكله، بما يكفي لإحداث فجوة عميقة يتم من خلالها فصل الرأس عن الجسد من جهة، وتمرير خطاب ثقافي محدد يكون بمقدوره فعل ما لم تستطعه آله الحرب وأداة الاستعمار المباشر من جهة أخرى، ولذلك تتم إعادة تشكيل هذا الرأسمال الرمزي من خلال قنوات اللغة والإعلام والتربية

---

١- عبدالإله بلقزيز: العولمة والممانعة . ص.ص: ٦١ . ٦٣ . سلسلة المعرفة للجميع . الرباط . ع ٤ . ١٩٩٩م.

والتعليم والتربية والسلوك الاجتماعي والإشارات والرموز والأنماط المتعددة للاستهلاك والأذواق، وهكذا؛ وما اللجوء إلى هذه الوسيلة، من جملة وسائل إعادة التشـــكيل، إلا لفشل المحاولات المتكررة لاختراق الشعوب الأكثر تشبثا بأصول ثقافاتها.

فما حيلة الاستعماريين الجدد أمام عصيان ثقافات هذه الشعوب؟ وكيف يحققون مشروعهم وهم يعرفون تمام المعرفة أن لا سبيل إلى اختراق الحصن إلا من خلال إعادة بناء الرأسمال الرمزي الثقافي، بناء يتهاوى بفعله جدار المانعة الضامن للبقاء.

## حوار الذات قبل الحوار مع الآخر

وبعد؛ فهل يحق لنا أن ندعي. بعد الذي سلف. قدرة أمتنا على دخول معركة حوار الحضارات والثقافات التي تدعو إليها الكثير من المؤسســات الثقافية تارة والدينية تارة أخرى، المحلية تارة والغربية تارة أخرى؟

وهــل بإمكاننــا. فعلاً. محاورة الآخر، الذي نعرف مســبقاً أنه يتحرك من داخل ثقافة الاستعلاء والتمركز حول الذات؟

وهــل من الأولويات الدعوة إلى حوار الثقافات والحضارات وجســد الأمة معتــل ومريض ومنهك، وحضارتنا تعيش على إيقاع هبوط خطير لا يفســح المجال حتى للحلم بغد أفضل؟

إنها جزء من أســئلة كثيرة تفرزها كل محاولة لفهم مجريات الأحداث ووضع

الذات في السياق العام لأطروحات التعاطي مع القضايا التي تربطنا . بهذا الشكل أو ذاك . بالآخر الذي أصبحنا شغله الشاغل مع بداية الألفية الميلادية الثالثة؛ الشيء الذي يفرض علينا ضرورة التعامل معه بكثير من الحذر.

يتبين إذاً أن حوار الحضارات والثقافات، وإن كانت الكثير من المؤسسات الإسلامية والعربية قد دعت إليه، أو تبنت خياره، لهذا السبب أو ذاك، لا نزال من وجهة نظرنا، غير مؤهلين . حالياً . للدخول في متاهاته، والإقبال على خوض غمار سجال تحكمه قيم ورؤى وفلسفات تقوم على التضاد بدل التنوع. فليس بمقدورنا محاورة الآخر قبل إنجاز حوار داخلي بين مختلف مكونات المجتمع الإسلامي، لتتحد أعضاء الجسم ويتكون لدينا وعي نقدي سجالي يكون على مستوى عال من الإبصار الثقافي، لأننا سنحاور خصما تاريخيا عنيدا قبل أن يكون جاراً حضارياً، خصماً يملك ثروة معلوماتية وتقنية هائلة، ويتحكم في الكثير من سياسات بلداننا . فكيف يحاور المغلوب الغالب؟

فكفانا جرياً وراء ما تنتجه الآلة الفكرية والثقافية الغربية، وكفانا من العيش على وتيرة تقليده في كل شيء، وليكن لدينا وعي نقدي يتأسس على فعل الممانعة ونحن نتحدث مع الآخر عن قضايا التعايش؛ إذ تقتضي المرحلة، بدل الهرولة إلى طاولة «الحوار الحضاري» مع الغرب؛ التي إن لم يكن فيها المتحاور معنا متمكناً وراسخاً في العلم، أدخلنا في سلسلة التراجعات التي تمس المبادئ والقيم والمنطلقات، أقول: فالمرحلة تقتضي العمل على فهم الذات أولاً، وتحديد أولويات المرحلة بمنهج يستبصر الآفاق من داخل فهم مكونات السنن الحضارية والتاريخية، ولن يتأتى لنا هذا المطلب ما لم نقم

بتجديد المنهج ذاته. يقول الدكتور «الشاهد البوشيخي» ملخصاً هذا الضرب من الفهم: «عبثاً نحاول إصلاح الحال قبل إصلاح العمل، وعبثا نحاول إصلاح العمل قبل تجديد الفهم، وعبثاً نحاول تجديد الفهم قبل تجديد المنهج، وإن تدبراً يسيراً لأول ما نزل من الهدى. هدى الله جل وعلا. يرشد إلى أن قراءة بمنهج معين، لتحصيل فهم معين، هي أول الطريق وشرط البدء؛ إنها القراءة باسم الله (...) فالمنهج الراشد ينتج العلم النافع، والعلم النافع ينتج العمل الصالح، والعمل الصالح ينتج الحال الصالح أو الحياة الطيبة (...)

وبما أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها، فكذلك لن يتجدد أمر الدين حتى يتجدد فهم الدين، ولن يتجدد فهم الدين حتى يهتدى في منهج الفهم للتي هي أقوم. وما أشق ذلك في الأمة اليوم، لكثرة الموانع وقلة الأسباب. فكم من ترسبات منهجية فاسدة أفرزتها وراكمتها قرون الضعف والانحطاط في الأمة لا تزال مستمرة التأثير، وكم من مقذوفات منهجية مدمرة صبها الغرب صبا على رؤوس نابتة في الأمة، أو نفثها في روعها، فهي فاعلة فيها فعل السحر، وليس في الواقع. للأسف. اتجاه عام، أو شبه عام، إلى صنع كواسح الركام أو الألغام، ولا اتجاه جاد، أو شبه جاد إلى تصنيع ما يخلص العباد من سحرة فرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد».[1]

---

١- الشاهد البوشيخي: «نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية». جريدة المحجة. المغربية. عدد ١٤٣. ٢٠٠١. ص: ٦١.

إن المرحلة الراهنة تقتضي، قبل فتح ملف الحوار الحضاري . الثقافي مع الآخر، أن نكون في مستوى المرحلة التي نعيشها . للأسف . على هامش التقدم الغربي، من جهة؛ وأن نكون في مستوى الحوار بما يجعلنا لا نقبع في دائرة الهبوط الحضاري الذي يعيق كل إجراء يهدف إلى إخراجنا من مرحلة الضعف الغثائية الثقافية إلى مرحلة العزة النفسية والقوة التي لا تعني البغي والجبروت والتسلط ، بقدر ما تعني المناعة والحضور الملموس في عالم لا يعترف إلا بالأقوياء على جميع المستويات.

إنه حوار الذات قبل الحوار مع الآخر؛ حوار يكسبنا الوحدة والتعايش فيما بيننا أولاً؛ إذ كيف ندعو إلى التعايش مع الآخر وذاتنا تشكو حال الانقسام والتجزئة ، سياسياً واقتصادياً وثقافياً؟

أنحاور بعقلية المغتربين في هذه الأمة الذين لا يضرهم فعل الإلحاق بالغرب المعاصر مهما كانت النتائج؟ أم نحاور بعقلية الذي ينغلق على نفسه في عالمه الخاص به خوفاً على هويته من الذوبان؟ أم نحاور بعقلية الذين لا يزالون يفتشون عن الصياغة الجديدة لأسئلة النهضة داخل ركام كتابات السابقين من هذه الأمة التي أريد لأبنائها أن يفقدوا الذاكرة الثقافية والتاريخية بما يكفي لتأزيم الهوية وإحداث القطيعة بين ماضيهم وحاضرهم حتى لا تستقيم الرؤية باتجاه المستقبل.

فقبل الحوار مع الآخر لا بد من الحوار مع الذات، وهذا يتطلب . فيما يتطلب . الجرأة في التحليل و النقد الذاتي بما يكفي لصياغة الإنسان صياغة تأصيلية وتأسيسية في الآن نفسه: تأصيلية بتمتين رباطه بأصوله

الثابتة حتى لا تهوي قدماه في أوحال التبعية والانبهار بالغرب الثقافي؛ وتأسيسية، حتى يكون في مستوى العصر لا على هامشه.

ويضاف إلى ما سبق، ضرورة تحديد مفهوم الحوار ومدلوله وأهدافه وأشخاصه؛ بل لا بد من تحديد صيغه ومحاوره الكبرى والصغرى حتى لا نضيع أوقاتاً في تداول القضايا الهامشية أو الخلافية التي لن تنفعنا لا في الآجل ولا العاجل بقدر ما ستتسبب في إدخالنا . مرة أخرى . في دوامة الأسئلة المزيفة التي يقذفها الغرب إلينا . من حين لآخر . حتى لا ننشغل بالأسئلة الحقيقية؛ وخصوصاً أننا أمام ثقافة لا تزال تختزن في داخل قواميسها مفاهيم الحروب الصليبية وصيحات الحذر من العالم الإسلامي الذي لا ينبغي . في نظر الكثير من الساسة الغربيين . أن يبرح مكان التخلف والهبوط الحضاري مهماً كلف ذلك من ثمن؛ ولذلك . وكما يقول «الحسين عصمة» «ليس اللجوء إلى خيار المواجهة مجرد اختيار بل هو ضرورة لا بديل عنها إلا تكريس التبعية وإعادة إنتاج التخلف بكل أشكاله. وإذا كانت رياح العولمة ، في ظل ما يسمى بالنظام الدولي الجديد، قد هبت بكل عنف وجبروت حتى بات الكثيرون يعتقدون أن لا فائدة في التصدي لها، بل لا محيد عن الاستسلام لها والمضي في ركابها، فإنها لا تحمل في طريقها كل المستسلمين لها؛ كما أنها لا تهب كيفما وحيثما اتفق. وإذا كان بعض من أصحاب الرأي وذوي القرار يعتقدون ألا فرصة للانفلات من قبضة التخلف إلا بالانخراط التام في دواليب النظام العالمي المعاصر، اقتصادياً وثقافياً، معتبرين أن التنمية في إطار التبعية طريق لا مناص منه، معتقدين بأن

البلدان التي تمكنت من اللحاق بكوكبة الدول المتقدمة إنما تأتى لها ذلك من خـــلال ارتباطها البنيوي الوثيق بهذه الدول؛ فإنهم لا يأخذون بعين الاعتبار خصوصية العالم الإسلامي والعربي بالنســـبة للغرب. فالنموذج الحضاري الإســـلامي كان دائماً المنافس الشديد للنموذج الغربي، بل إن هذه المنافسة كثيـــراً ما وصلت إلى التصادم؛ وهذا مـــا جعل الغرب يقف موقفا حذراً من أي محاولة نهضوية تســـتهدف الخـــروج من دائرة التخلف، بل ولا يتردد في التصدي لها حتى ولو كانت في دائرة التبعية للغرب وعن طريق التتلمذ على يديه».[1].

* * * * * * *

١- الحسين عصمة: «العالم الإسلامي وتحديات العولمة». مجلة الكلمة. عدد ١٩. السنة الخامسة. ١٩٩٨. ص: ٨٢. ٣٨.

# هل هو غياب الثقة بين الإسلام والغرب؟ (*)

د. حسن بن إدريس عزوزي

رئيس تحرير مجلة كلية الشريعة - فاس/ المغرب

(*) الوعـــي الإســـلامي: عدد «٤٦٥» جمادى الأخيرة - ١٤٢٥ هـ - يونيـــو -يوليو ٢٠٠٤، ص: ٤٦، وعدد «٤٧٠» شوال - ١٤٢٥ هـ - نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٤ ، ص ٤٠ .

لا ينكر المتابع عن قرب لإشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب منذ عقود من الزمان، أن ثمة غياباً واضحاً للثقة بين الجانبين قد شكَّل العقبة الكؤود أمام كل محاولات بناء الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب، ولا شك أن كثرة المبادرات الصادرة هنا وهناك لعقد لقاءات للحوار والتفاهم سواء على الجانب السياسي أو الثقافي أو الحضاري تعتبر في حد ذاتها أكبر مؤشر على عمق سوء الفهم وغياب الثقة بين الحضارتين، فالمخيلة الشعبية الغربية التي غذيت بأكثر البحوث الاستشراقية إيغالاً في التشويه والتحريف وبالأدبيات الغرائبية التي تم نسجها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وسياسة التمييع لحقائق الإسلام التي تزعمتها خلال النصف الثاني من القرن الماضي، مختلف أجهزة الإعلام الغربية بكل مكوناتها المكتوبة والمسموعة والمرئية وتفاقم حجم خطورتها اليوم، كل ذلك جعل من الإسلام «ديناً» غارقاً في شتى الصور النمطية المنحرفة، فهو عدواني متعصب استبدادي، خرافي وتراثي عدو للديموقراطية والحرية، ويحتقر المرأة ويهينها ويعادي القيم المدنية الحداثية ويشيع في أتباعه روح الكراهية للآخرين.

وهذه الصور النمطية المختلفة التي شكلَّها الغرب من خلال أدبياته الثقافية والفكرية والتربوية والإعلامية جعلت المسلمين ينظرون إلى الدول الغربية أنها دول معادية للإسلام ومبغضة للمسلمين ولا يمكن الوثوق في صدق التوجهات الغربية تجاه العالم الإسلامي كما أنه لا فائدة تُرجى من ربط جسور التواصل الحضاري بين الجانبين.

في مقابل هذه الصورة، تبرز صورة أخرى ترمي إلى ما رمت إليه الصورة الأولى نفسها: تأكيد غياب الثقة وعدم التفاهم، فالغربيون من جهتهم ليسوا

في الجهاز الشعوري الإسلامي أهلاً للمودة الحقيقية أو الثقة المطلوبة، فالغرب تحكمه عقدة الاستعلاء والغرور، وإرادة الهيمنة والاستغلال، واستهداف تعزيز سيطرة الإنسان على الكون. إن الغرب في أعيننا يتمثل في نزعة العداء المبيَّت المنظَّم والمتآمر على مشاريعنا وتطلعاتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولا نتصور الغرب إلا في مسوح المادية الصارخة، وفي العلمانية المعادية للدين، وفي الليبرالية وفي الفساد الأخلاقي والاجتماعي وأمور كثيرة لا تثير في نفوسنا إلا النفور والعداء والكراهية، أما القيم التي تحرِّك الحضارة الغربية فهي ليست قيماً «بريئة» أو مما يمكن الاطمئنان إليه «إسلامياً».

هذه الصور النمطية المتبادلة بين التصورين الإسلامي والغربي هي التي تعزز بقوة ثبات غياب الثقة وانعدام التفاهم، وبالرغم من كل ذلك، فينبغي الاعتراف بأن الصورتين اللتين تشخصان أمامنا ليستا على هذا القدر من التشاؤم والدفع إلى الإحباط، فهناك أضواء منيرة ومؤشرات إيجابية في طريق التواصل بين الحضارتين، وكل ما يقال من هذا الطرف أو من ذاك الطرف يخفف من حدته تلك الجهود المحمودة التي لا يدخر أصحابها وسعاً في أن يبيِّنوا لغيرهم أن في كل تلك الصور النمطية التي يتم تكريسها هنا أو هناك لا تعدو أن تكون مبالغات سلبية لا مسوغ لها ومواقف مشحونة يجب التخلص منها بهدف رؤية الجوانب المضيئة التي تبعث على التفهم والتواصل وراء أحقاد وسلبيات الماضي وكراهيات الحاضر وهواجس المستقبل، إنه ينبغي لكل طرف أن يمارس شيئاً من المرونة لتجاوز المواقف المتشددة والقناعات التي لا تسمح بالانفتاح على الآخر والتواصل معه، وذلك

من أجل الدخول في حوار حضاري حقيقي يجعل كل طرف مستعداً لأن يعرف ما يكتنزه الآخر بعيداً عن «الكليشيهات» الجاهزة، والأحكام المسبقة، والصور النمطية المختلفة.

صحيح أن سياسة الكيل بمكيالين قد تحكَّمت بقوة في توجيه العلاقات بين العالم الإسلامي والعالم الغربي خلال التاريخ الوسيط والحديث، ومازلنا نلاحظ آثاراً ملموسة لهذه السياسة العنصرية في أيامنا هذه، لكن هل نستخلص من ذلك أننا أمام نوع من الحتمية الضرورية التي لا سبيل للتخلص منها؟ إننا نخطئ إذا اعتقدنا ذلك، فالتاريخ لا يعيد نفسه إلا بمقدار ما نتخلى عن إرادة صنع تاريخ جديد يتجاوز سلبيات وأحقاد الماضي، لكننا بالمقابل نخطئ أيضاً إذا لم يحاول الطرفان معاً أخذ العبرة من ماضي العلاقات بين الإسلام والغرب.

إن من واجبنا كأتباع حضارة إنسانية منفتحة على الآخر أن نعمل على فتح أبواب الأمل والرجاء للالتقاء على نقاط وجوانب مشتركة مع الحضارة الغربية نستطيع من خلالها إقامة علاقات إيجابية مع هذا الغرب في المستقبل، ولا شك أن مثل هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أُقصي من ساحة الحوار المحاورون سواء «أشخاصاً كانوا أو مؤسسات» المنبهرون والمسارعون في هوى الغرب، والجاهلون بالإسلام، وكذلك الجاهلون بمفاهيم الغرب، والجامدون الذين يطيرون وينفرون من الاتصال بالآخر، وهذه الشروط تستتبع شروطاً أخرى تتجلى في العلم بالإسلام والعلم بالفكر الغربي وصحة منهج التفكير، ورقي أسلوب الحوار، وبعده عن الإسفاف والمرونة في المناقشة والصلابة على الثوابت والبدهيات، وعدم التنازل عن

المبادئ والمسلمات. فهذه الشروط أملتها بقوة بواعث فشل كثير من لقاءات الحوار الحضاري التي أجريت هنا أو هناك خلال العقود الأخيرة الماضية التي لم تراع فيها الشروط المطلوبة في المتحاورين من جهة، وفي طبيعة الحوار المنشود من جهة أخرى.

ويبدو من المنظور الإسلامي الحضاري، أن الاحترام المتبادل بين الأطراف المتحاورة هو المنطلق الأول الذي يجب أن يرتكز عليه الحوار، وهذا يفترض وجود قواسم مشتركة تكون إطاراً عاماً وأرضية صلبة للحوار، ولنا في القيم الإسلامية أولاً، ثم في المبادئ الإنسانية والقواعد القانونية غناء لجميع الفرقاء المشاركين في الحوار، وهي جميعاً قيم ومبادئ تحكم علاقات البشر بعضهم مع بعض، وتضع القواعد الثابتة للتعامل فيما بينهم، لقد استعرض الأمير «شارلز» ولي العهد البريطاني في محاضرة في جامعة «أكسفورد» ألقاها العام ١٩٩٣م طائفة من إمكانات الوفاق البنَّاء في ظل التعاون بين الإسلام والغرب، وأكد أن الإسلام يمكن أن يعلِّمنا أسلوباً للعيش في العالم في جو من التفاهم، الأمر الذي تفتقر إليه المسيحية نفسها.

بيد أنه لا قيمة للحديث عن الحوار الحضاري ما لم يكن أحد سياقاته الفكرية رفع مظالم الغرب عن المسلمين في العالم، فالواقع يشهد بأن الإسلام يطارد ويشوّه ويصوّر على أنه عدو خطير وأن حضارته صدامية. فالحوار لا يمكن عزله عن الواقع المحيط بجميع أطرافه، فلا بد من تهيئة المناخ الملائم، وتبديد المشكلات والعراقيل التي تعترض ذلك، ومهما يكن من شيء، فإن هناك أكثر من تحدٍّ يواجه الطرفين في سبيل تحقيق الوفاق المنشود، وذلك في زمن أمسى مطبوعاً بزوال اليقين واستفحال الخوف من المستقبل...

فاليقين الوحيد السائد الآن . وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م . هو الخوف من المجهول والشك فيما يخبئه لنا الغد القريب، وبالرغم من كل ذلك، فإن الجميع مدعوون في مواجهة تلك التحديات إلى إيجاد الحلول وإبداع المخارج انطلاقاً من التاريخ والمبادىء الخاصة لكل طرف.

إن ضخامة التحديات تفرض على الجميع مقابلة الحلول ومعارضتها فيما بينها والمقارنة بين التصورات والتوفيق فيما بينها، ثم العمل على التحاور في إطار من التسامح والتفاهم والتوافق مع تعزيز فرص الاعتراف بالآخر والاستماع إليه، والتسليم بضرورة وفائدة التلاقح بين الأفكار والتجارب.

**القيم والقواعد المشتركة: أساس الحوار بين الإسلام والغرب**

إن مسألة الحوار الحضاري بين المسلمين وأهل الغرب هي مسألة التفاعل الإنساني والثقافي بين أتباع الحضارتين، وهي تهدف إلى تغيير النظرة الاستعدائية والتخلي عن التصنيف النمطي المتوارث من مخلفات الماضي.

إن الحوار الحضاري شأن ثقافي يجانب المسائل الدينية الصرفة المرتبطة بفرضيات ومبادئ ومواقف إيمانية يعتبرها أصحابها مسلمات مطلقة، لكنه يتناول الجوانب الأخرى من آفاق الانفتاح والتواصل الإنساني التي يشترط تحققها الاعتراف بالآخر وتفهم مشكلاته ومقاصده وإدراكه على قدم المساواة وعدم استهدافه بالتمييز أو التحقير أو الإلغاء أو محاولة ذلك.

وإذا كان الحوار بين الحضارات يتحول تدريجياً في العالم الغربي ليكون نتاجاً لتطورات ثقافية وإنسانية تدعو إليه وتفرضه، فإنه يمثل بالنسبة لنا

نحن المسلمين حاجة وجودية للقلق العميق الذي يخالط تجددنا الاجتماعي والقيمي والسياسي في مواطننا الأصلية وفي بقاع انتشارنا في العالم، فالمتغيرات التي تحدث على مستوى العالم بعد اهتزاز التكوينات السياسية والأيديولوجية والبشرية أمام تحديات الحداثة تواجهنا كما تواجه الآخرين بتحديات وأخطار لا نستطيع كما لا يستطيعون مواجهتها منفردين، لذلك بات لزاماً على كلا الطرفين البحث عن سبل التلاقي والتواصل، عن طريق البحث عن أرضية مشتركة للتعاون بدل المجابهة، والانفتاح بدل الانغلاق، والتفاهم بدل التجاهل، إن هناك تعاوناً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً بين العالم الإسلامي والغرب، ولكنه ليس كافياً ولا يندرج في غالب الأحيان في السياق العام لمنظومة الحوار الحضاري بين الجانبين، والسبب في ذلك. ببساطة. هو أن تنسيق المصالح والمنافع «السياسية والاقتصادية» ينبغي أن يسبقه الفهم الحقيقي المتبادل على الصعيد الثقافي والحضاري والديني.

إن المطلوب هو تجاوز الوقوف أمام العوامل السلبية في تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب وتجاهل ما بين الحضارتين من نقاط التقاء عديدة وقواسم مشتركة، وينبغي الاعتراف في هذا الصدد بأنه لا تزال توجد غربة فكرية للمسلمين عن الحضارة الغربية وغربة فكرية أعمق للغربيين عن الإسلام، لكن هذه العوائق يمكن أن تتبدد كلما كثرت اللقاءات الحضارية والثقافية بين الجانبين.

إن الحوار في القضايا المشتركة بين المجتمعات الإسلامية والغربية المتنوعة كفيل بتحقيق نوع من التقارب والتفاهم وخصوصاً على مستوى القيم الفكرية والإنسانية التي يلتقي حولها الجميع، وهنالك محاولات

واسعة للتقارب تجريها منظمات ومؤسسات دولية يمكن أن تؤسس لقاعدة قوية لتعاون أعظم والتزام مشترك قصد مجابهة ومواجهة نزعات الصراع والصدام والعداء ومحاربة قوى الشر والعدوان التي تهدد العائلة الإنسانية، وهنا لابد من التأكيد على حيوية ودور الدين كجزء أساسي في السعي نحو التعاون والسلام والتآلف بين الأمم والشعوب، وإذا كان الإسلام والمسيحية يدعوان بقوة إلى قيم العدل والمساواة والتسامح مما يشكل قواعد مشتركة للتعاون وحل المشكلات الإنسانية العالقة فإن في ضوء ذلك يمكن الإطلالة على المسألة السياسية في القيم المشتركة بين الحضارتين في قضايا الظلم والعدل والحرية والعبودية والاستكبار والاستضعاف في ساحة الصراع المتنوع في العالم كله... لذلك ينبغي التخطيط لمواجهة الاستكبار السياسي والاقتصادي والأمني والثقافي الذي يضغط بقوته الكبرى على صعيد الواقع الذي يعيشه المستضعفون في كل شؤون حياتهم من الفقر والجهل والتخلف والضياع مما يعمل المستكبرون على تطويره وتنميته حتى لا يستطيع هؤلاء أن يقفوا على أقدامهم بقوة، وصلابة وثبات.

إن القضايا التي يجب التركيز عليها في الحوار مع الغرب مما يشكل قواعد مشتركة ينبغي استثمارها والتأكيد على أهمية توظيفها في سياق التواصل واللقاء الحضاري، ترتبط بصوة أساسية بمسائل التعاون من أجل إقرار المبادئ والتعاليم الدينية المشتركة التي تحض على احترام الحياة الإنسانية وعلى السعي في الأرض من أجل الخير والأمن والسلام ومقاومة العنف وانتشاره هنا وهناك بدعاوى مختلفة، وتؤكد على محاربة الإلحاد والرذيلة والظلم والطغيان، وعلى دعوة الناس إلى تفهم قناعات ومبادئ

الآخرين وتوحيدهم على قيم المحبة والتسامح والإخاء الإنساني، وهذه كلها تعتبر مساحات واسعة للعمل المشترك في سبيل خدمة البشرية وإنقاذ العالم من الشرور.

وإذا كان الإسلام يشترك مع المسيحية في كثير من القيم الروحية والإنسانية مما يعتبره المتحاورون حول موائد الحوار الإسلامي. المسيحي قواعد مشتركة للتفاهم حول قضايا دينية عالقة، فإن الغرب في حواره مع الحضارة الإسلامية مطالب بمسايرة أهداف الكنيسة ومبادئها تجاه الإسلام، وهي المبادئ التي تبدو متفهمة ومتسامحة وداعية إلى التعايش والتفاهم وخصوصاً بعد صدور قرارات اجتماعات «المجمع الفاتيكاني» الثاني العام ١٩٦٥م التي أبانت عن توجه جديد لدى الكنيسة الكاثوليكية في علاقتها مع الإسلام.

فعلى الغرب إذن الذي يعتبر نفسه أكبر من المسيحية، التي تجاوز مرحلتها أن يستأنس في حواره مع الإسلام، بما تم تكريسه والاتفاق عليه، من قضايا وجوامع مشتركة يمكن أن تسهم في قطع أشواط ذات بال في مسيرة الحوار الحضاري المنشود بين المسلمين وأهل الغرب، بيد أنه ينبغي الاعتراف بأنه إذا كانت الحضارة الإسلامية تستند في خلفيتها الفكرية والثقافية إلى المرجعية الدينية مستمدة منها الأسس القيمية والأخلاقية التي تفيد في تقويم وتهذيب وتصويب المسار الحضاري المعتبر، فإن الإشكال القائم في سياق الحديث عن القواسم المشتركة بين الحضارتين كركيزة للتفاهم وأساس للحوار يتمثل في كون الغرب لا يعتمد على مرجعية الكنيسة ومجامعها، وهي المرجعية التي قلنا: إنها متفهمة وداعية إلى التعايش والتحاور مع

المسلمين، فالقطيعة الحاصلة بين الغرب المادي والكنيسة النصرانية تحول دون انسجام المواقف وتقارب المبادرات، كما أن آثار الدعوة إلى الحوار ونبذ روح الكراهية وتحقيق السلم العالمي والمساواة الاجتماعية مما أصبحت تدعو إليه الكنيسة منذ أكثر من ثلاثة عقود، كل ذلك لا يكاد يظهر على عمل الأجهزة المؤثرة وأصحاب القرار القوي في الغرب الذي تتحكم فيه مؤسسات سياسية واقتصادية وفكرية رهيبة تحقق من وراء تكريسها لروح العداء والظلم والكراهية بين الإسلام والغرب مصالح استراتيجية ذات بال.

* * * * * * *

# الإسلام والحضارة الغربية: بديل أو منافس؟ (*)

د. محسن خضر - مصر

(*) الوعي الإسلامي عدد ٣٩٥ رجب ١٤١٩ هـ/ اكتوبر - نوفمبر ١٩٩٨ ص: ٥٤

من الرعب من القنبلة الباكستانية إلى التهويل من خطر الصاروخ الإيراني الجديد، تُثار من جديد مسألة الحوار/ الصراع بين الإسلام والغرب، وبينما يتقاسم الفكر الإسلامي تياران أحدهما ينتمي إلى العصور الوسطى، ويرى في نظره أن العالم دار حرب، ويتشبث بنظرية المؤامرة، ويعتبر الحروب الصليبية مستمرة حتى إشعار آخر، وتحت أسماء شتى، والثاني هو الأكثر حضارة وثقة، حيث يرى أن الإنسانية تشكل أفقاً مشتركاً واحداً للجميع، وأن الحوار الحضاري بين المركز والأطراف بإمكانه أن يبدد الهواجس ويمتص الشكوك ويمد جسوراً للتعاون.

وعلى الضفة الأخرى، تنتشر في الشمال حمى استعداء الإسلام، ويشترك فوكوياما وهينتنغتون وبرنارد لويس في ترويج مقولة الصدام الحتمي بين الحضارتين العربية والإسلامية، وهو ما دفع سكرتير حلف الأطلسي السابق كلايس إلى مطالبة المخططين العسكريين للحلف للتأهب لصراع محتمل ومتوقع بين الشمال والجنوب «هل نرى في رحلات كلينتون وشيراك إلى أفريقيا تحضيراً لمسرح المواجهة المقبلة»؟

وتمثل العولمة، روح فلسفة ما بعد الحداثة، في سعيها الدؤوب لإقصاء الأرقام غير الغربية من معادلة الحضارة، وبالتالي تجد شعوب العالم الثالث أمام خيارين: إما خيار «المكانونلدة أو الكوكلة»، أي خيار التبعية والتهميش والخروج من التاريخ، أو خيار المواجهة والصراع، وكلاهما مر.

وإذا كنا من أنصار الحوار، فمن المهم أن نتخلى عن موقف خاطئ هو موقف الاستحواذ على الطرف الآخر، وإرغامه على التخلي عن موقعه،

والانصياع إلى وجهة نظرنا، لأننا نشكو من سعي الغرب إلى جرنا إلى هذا الموقف، وبالتالي ليس من المنطقي أن نكرر الازدواجية.

ومن أخطر ما يجهض نجاح الحوار الثقافي . الحضاري بين الغرب والشرق الإسلامي، التشويه الذي يتعرض له الإسلام في الغرب، وهو موقف له جذوره التاريخية منذ أن وضع دانتي الرسول محمد . صلى الله عليه وسلم . في قاع جهنم في «الكوميديا الإلهية»، وقرنه تراث العصور الوسطى بصورة الشيطان ونعته بالدجال، والشهواني، وكلب الجحيم، وتلاحظ آنا ماري شيميل أن شخصية محمد «أثارت أكثر من أي شخصية تاريخية أخرى الخوف والكراهية والاحتقار في العالم المسيحي، ويعبر دانتي . في موقعه السابق . عن مشاعر عدد لا يحصى من مسيحيي العصور الوسطى».

إن كتباً من عينة «التحدي الإسلامي» لكونزيلمان (١٩٨١م)، «الملأ على ضفاف الراين. الزحف الإسلامي نحو أوروبا» (١٩٩٤م) تمثل هذه الروح الغربية العدوانية.

ومنذ الثورة الإيرانية اقترنت صفة الإرهاب بالإسلام، بحيث يعتبر كل مسلم متعصباً أو إرهابياً، وتعبر مجلة مثل Bunlo الألمانية عن هذا المناخ حيث تتساءل (عدد ١٩/١/١٩٩٥م) المجلة المذكورة عما إذا كان مركز التهديد قد انتقل من موسكو إلى مكة.

ويلاحظ مراد هوفمان . المستشرق والدبلوماسي الألماني المسلم . أن الغرب بعد صمود الإسلام ورفضه الانسحاب من مسرح الأحداث، خروجاً عن سياق الزمان والتاريخ، بل إنه يمثل إهانة بالغة للغرب، وبخاصة بعد

انهيار الغريم الشيوعي، وهو ما أصاب الغرب بمرض زهو انتصار ثقافي أمبريالي غربي.

وتنتقد الرؤية السابقة الفلسفة الحياتية للغرب، ونظاميه الاقتصادي والسياسي، وفرضياته العلمية، وتكنولوجياته، ومفهومه عن حق الشعوب، وغيرها من معطيات الفكر والحياة، بما يمثل نموذجاً إلزامياً لما يسمى بالعالم الثالث.

ويلاحظ أن رسول الإسلام، الذي يحظى باحترام مليار إنسان، لا يتمتع حتى الآن في الغرب بأي حماية قانونية في الوقت نفسه، الذي يتمتع فيه أتباع البوذية، ومذهب التكهنية الهندوسية، وعابدو الشيطان، واليهود بحماية قانونية، فكل شيء مسموح إلا أن تكون مسلماً.

ويلاحظ هوفمان أنه إذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعلنت في ختام المجلس المحلي الثاني بالفاتيكان العام ١٩٦٥م أنها تتخلى عن تفردها وحدها «بخلاص الأرواح من الذنوب، وأنها تعترف بالإسلام كطريق للخلاص»، إلا أنها لم تتقدم إلى الخطوة المنطقية التي تتبع هذا الاعتراف، وهي الاعتراف بمحمد كقائد لهذا الطريق ومرشد له، «وبالقرآن كوحي إلهي».

ويرى هوفمان أن الإسلام يجرؤ على طرح نفسه كبديل للحضارة الغربية، ويتساءل حول التحامل الألماني على الإسلام «إلى أين سيصل بنا المطاف، إذا ما كممت الأفواه في ألمانيا، لأنها تتحدث عن خصائص لا تتوافق مع أيديولوجية بعينها؟ ماذا سيحل بنا، إذا ما استباح الأساتذة، والعلماء الحق لأنفسهم في إملاء مشاعر بعينها على مليار من البشر (غير المرغوب

فيهم)؟

يعترف صمويل هينتنغتون نفسه في كتابه «صدام الحضارات» بأن العلاقات بين الإسلام والمسيحية كانت لكليهما تعني الآخر بالنسبة للآخر، وإن صراع القرن العشرين بين الديموقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية وزائلة، إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية، وعبر القرون كانت خطوط العقيدتين تصعد وتهبط من نوبات انبعاث مهمة، فوقفات، وانتكاسات.

ويرصد دلالة الطبيعة العنيفة للعلاقات المتغيرة بين الإسلام والغرب في حقيقة أن ٥٠٪ من الحروب الثنائية بين عامي ١٨٢٠م و ١٩٢٩م كانت حروباً بين مسلمين ومسيحيين، ويفسر هينتنغتون طبيعة الصراع من خلال أوجه الاختلاف والتشابه بين الديانتين والحضارتين، فمن ناحية الاختلاف يأتي مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة متجاوز ويربط بين الدين والسياسة، ضد المفهوم المسيحي الغربي الذي يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر، أما صدور الصراع عن أوجه التشابه فيأتي من أن كليهما دين توحيد يختلف عن الديانات التي تقول بتعدد الآلهة، وكلاهما ينظر إلى العالم نظرة ثنائية: «نحن» و«هم»، وكلاهما يدّعي أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة التي يجب أن يتبعها الجميع، وكلاهما دين تبشيري يعتقد أن متبعيه عليهم التزام بهداية غير المؤمنين وتحويلهم إلى ذلك الإيمان الصحيح.

كما كان مستوى الصراع العنيف بين الإسلام والمسيحية عبر الزمان يتأثر دائماً بالنمو الديموغرافي وهبوطه، وكذلك بالتطورات الاقتصادية والتحول

التكنولوجي وشـــدة الالتزام الديني ويمثل لعامـــل النمو الديموغرافي بأكبر عملية هجرة في التاريخ تدفقت على أراضي المســـلمين منذ القرن التاســـع عشر بسبب النمو السكاني الهائل الذي أدى إلى انفجار أوروبي يشبه الذي حدث إبان الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر.

وثمة إشـــارة برنارد لويس الذي لاحظ أن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك وبالنسبة للقرن العشرين يحدد هينتنغتون مجموعة من العوامل زادت مع الصراع من الإسلام والغرب في أواخر القرن العشرين، وهي:

**أولاً:** النمو الســـكاني الإسلامي الكبير الذي خلف أعداداً كبيرة من الشبان العاطلين والســـاخطين الأصوليين الذين شـــكلوا ضغطاً على المجتمعات المجاورة وخصوصاً بهجرتهم إلى الغرب.

**ثانياً:** إن الصحوة الإسلامية أعطت للمسلمين ثقة متجددة في قدرة قيمهم مقارنة بقيم الغرب.

**ثالثاً:** جهـــود الغرب المســـتمرة لتعميم قيمه ومؤسســـاته من أجل الحفاظ على تفوقه العســـكري والاقتصادي، والتدخل في الصراعات في العالم الإسلامي التي تولد استياء شديداً في صفوف المسلمين.

**رابعاً:** سقوط الشيوعية أزال عدواً مشتركاً للغرب والإسلام وترك كلاً منهما لكي يصبح الخطر المتصور على الآخر.

**خامساً:** الاحتكاك المتزايد بين المسلمين والغربيين يثير في كل من الجانبين إحساساً بهويته الخاصة المختلفة عن هوية الآخر.

ونلاحظ أن التفسير السابق يجعل من الصدام بين الجانبين أن يكون حتمياً نتيجة لترتبه على مجموعة من المواصفات والعوامل التي لا يمكن تجنب قوتها وتأثيرها على اشتعال الصراع.

كما أن التفسير السابق ينحو إلى إذكاء قيمة الوجه الثقافي على حساب الأوجه الأيديولوجية والاقتصادية، مما يجعل خطوط التماس بين الأمم والمجموعات الممثلة لحضارات وثقافات مختلفة . هي خطوط معارك المستقبل.

وبالطبع يتضمن ما هو ثقافي مكونات التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والدين.

ثمة تفسير سياسي مبعثه الديموقراطية، نجده في نظرية فرانسيس فوكوياما في كتابه «نهاية التاريخ، حيث يرى أن الديمقراطية الليبرالية حققت انتصارها النهائي على الشيوعية، وبالتالي أصبحت النظام السياسي السائد في شتى أنحاء العالم.

وبالطبع يرفض الأصوليون الإسلاميون هذه النظرة فالسيادة الحقيقة ليس مبعثها مبدأ سيادة الشعب الممثلة في الجمعيات التشريعية وعلى أساس مبدأ الإجماع الذي يفسره الممثلون المنتخبون، والقيم المستمدة من حركة التنوير الأوروبي، بل السيادة الحقيقية في الإسلام تقع بين يدي الله وحده حسب الشريعة الإسلامية، وهو ما يعبر عنه قول أبو الأعلى المودودي «إن مبدأ وحدة الله يبطل تماماً مفهوم السيادة القانونية والسياسية لبني الإنسان، فرادى أم جماعات، إن الله وحده هو المهيمن على شؤون العباد

وشريعته «هو قانون الإسلام».

ويذهب إلى هذا الاتجاه منظّرون إسلاميون كثيرون يرون في قيم الحضارة الغربية «تسميماً غربياً للمجتمعات الإسلامية»، وفي نظرهم فإن العلمانية اللادينية وبالتالي اللاأخلاقية، هي شر أشد سوءاً من المسيحية الغربية التي أنتجتها وإذا كانت ثمة «شيوعية كافرة» فإن هناك «غرباً كافراً» أيضاً.

وإلى جانب التناقض القيمي، فإن التطور التكنولوجي، وبخاصة في مجال الاتصالات من شأنه تأجيج الصراع بين الإسلام والحضارة الغربية، فيرى المفكر الاسكتلندي أليس ريفن أن استمرار سيطرة الغرب على موجات الأثير، سيفرض هيمنته الثقافية على بقية العالم، مما سيذكي شعور الفقراء والمحرومين بضغوط صور أساليب الحياة التي تتمتع بها الأقليات المرفهة، وستولد مشاعر الظلم وعدم المساواة نيران التشدد، سواء الديني أو العلماني، وبالانتشار العالمي للحضارة والثقافة الغربية سيجد منظّرو الثورة الإسلامية أنفسهم مقاتلين في معركة يائسة خاسرة، وسيكون ملاذهم الوحيد في مواجهة الخروج الغربي على المبادئ وانهيار القيم المعنوية هو أسلوب «المشاركة»، وذلك عن طريق إضافة الرؤية المميزة للإسلام بعمقها الديني والتاريخي الغني، وإذا حدث الصدام بين الحضارات، فسيحدث في عالم الالكترونيات «المعلوماتية»، وليس بين الجيوش والكتل الإقليمية، إن الثقافي في الرؤية السابقة سيتضافر مع التقني وبخاصة في مجال المعلوماتية مما يعمق من الفجوة بين العالمين.

ويعيد هينتنغتون صياغة العلاقات بين الإسلام والغرب في فقرة محددة محكمة واضحة بقوله:

«المشـــكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام: فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته».

وهذه هي المكونات الأساسية التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب «إن الحوار، والتشـــارك، والمراجعة، والاعتراف بالخطأ تشـــكل في نظرنا مدخلاً لإعادة التـــوازن بين الحضارتين، وتمهد إلى إيجاد أرضية مناســـبة للتلاقي: فالاعتـــراف بالأخطاء المتراكمـــة، ونقد الذات، وإبـــداء الرغبة الحقيقية في التفاعل المتكافئ والتداخل الحضاري المبني على أرضية من التسامح الرحب في مواجهة أنانية الغرب وصلفه التي يعبر عنها ادوارد سعيد في مؤلفه الرائع: «الإمبريالية والثقافة» بقوله: «لقد عززت الإمبريالية خليط الثقافات والهويات على مستوى كوني، غير أن أسوأ هباتها وأكثرها ضدية هي أنها حملت الناس على الاعتقاد بأنهم بيض، أو ســـود، أو غربيون، أو شـــرقيون، وكما أن البشر يصنعون تاريخهم الخاص، فإنهم يصنعون أيضاً ثقافاتهم وهوياتهم الأعراقية، ليس بوسع أحد أن ينكر الاســـتمرار الملحّ للتراثات العريقة، والمساكن المفرزة المتصلة، واللغات القومية، والجغرافيات الثقافية، لكن المضي في الإلحاح على تمايزهـــا وانفصالها يولّد الخوف والتحيز، إنه لأعظم نفعاً. وأكثر صعوبة أن نفكر بتعاطف وإحساس بالآخرين بدلاً من أن نفكر بـ«أنفسنا فقط»... بيد أن ذلك يعني أيضاً ألا نحاول أن نحكم الآخرين، ونصنفهم في تقسيمات، ويعني فوق كل شـــيء ألا نلح على تكرار أن «ثقافتنـــا» أو بلادنا هي الأولى، إن أمام المفكر قدراً كافياً مما هو قيم ليستغني به عن ذلك».

ويستشهد سعيد بعبارة أليوت: «إن الواقع لا يمكن أن يحرم من الأصداء التي تقطن الحديقة».

لا جدوى من المواجهة المحتدمة بين حضارتي الإسلام والغرب، وبخاصة في ظل النية الغربية على إقصاء الآخر، وتغييبه، وتشويهه، بل إن الحوار هو البديل الحقيقي الذي يحقق مصلحة الطرفين، ولا نجاح لهذا الحوار في غياب الشروط المهيأة له وفي مقدمها اعتراف الغرب بالإسلام كهوية متميزة، واحترامه، واحترام أتباعه، وحقهم في الوجود، وهو ما يمكن أن توفره الرؤية المنصفة للآخر، كما نستبعد بدورنا خطأ تكتيل الغرب بوضعه في سلة واحدة، معادية كافرة بالضرورة، ويعبر مفكر إسلامي بارز هو أحمد كمال أبو المجد عن هذا المعنى بقوله: «إن التسامح الحقيقي من الضروري أن يتوافر سلفاً لتحقيق تعددية ذات مغزى، إذاً كوننا نؤمن بإله واحد وبكرامة إنسانية وبالتعددية، فهذه في اعتقادي عناصر مشتركة كافية لتبرير بذل جهود مشتركة لعبور الهوة التاريخية بين العالمين.

إن العالمية الحقيقية . لا المزيفة . تعني وجود أقوام متعددين يحتفظون بالاختلافات بينهم مع سعيهم في الوقت نفسه لإثراء جهودهم المشتركة من خلال العناصر المتضمنة في هذه الاختلافات».

إن كل ما يطلبه المسلمون هو أن تتاح لهم الفرصة لكي يقدموا . بكل تواضع . ما تحتويه ثقافتهم من أفكار ورؤى يمكن أن تفيد في إقامة نظام أكثر سلاماً وتقدماً وإنسانية.

ولعلي أستعير عنوان التقرير الأخير لليونسكو . في نهاية هذه المداخلة

.: «تنوعنـــا الخلّاق»، نعم، فالإيمان . واحترام . هذا التنوع بين الكتل الثقافية المختلفة، واحترام هذه التعددية الثقافية، هو الشرط الحقيقي لإقامة حوار ناجح بين الكتلة الإســـلامية والحضـــارة الغربية، ولا غنى عنه أبداً بدلاً من حتمية المواجهة الثقافية التي بشَّر بها هينتنغتون وأترابه.

• • • • • • •

# مبادئ الخطاب الإسلامي المعاصر في التعامل مع الحضارة الغربية (*)

أ. فهمي هويدي - مصر

(*) بحث قُدم إلى الندوة السادسة لمستجدات الفكر الإسلامي، التي انعقدت في الكويت خلال الفترة ٨-١٠ ذو القعدة ١٤٢٣هـ الموافق ١١-١٣ يناير ٢٠٠٣ م ، نشر في الوعي الإسلامي عدد «٤٧٦» ربيع الثاني ١٤٢٦هـ - إبريل - مايو ٢٠٠٥ ص ٤٤ .

## نحو حوار بنّاء بين الحضارات

مهم للغاية أن نسعى لإنجاح حوار الحضارات والإسهام فيه، ومهم بالقدر عينه أن نتفق على مبادئ الخطاب الإسلامي التي ننطلق منها في التعامل مع الحضارة الغربية لكن الأمر ليس سهلاً ولا الطريق معبداً، ذلك أن ثمة ملاحظات سبع يتعين الانتباه إليها قبل الدخول في الموضوع وطرق ذلك الباب، وهذه الملاحظات :

١- إن اعترافنا بأهمية الحوار بين الحضارات، لا ينبغي أن يتجاهل حقيقة أن الملف الخاص بذلك الحوار تراجع على نحو ملحوظ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كما أنه مرشح لأن يواصل تراجعه في المستقبل، ذلك أن التطورات التي أعقبت ماجرى في سبتمبر، وخصوصا ما تعلق منها بإعادة النظر في الاستراتيجية الأميركية وتنامي قوة التيار الداعي إلى بسط هيمنة الإمبراطورية الأميركية. الأمر الذي استصحب تراجعاً نسبياً للدور الأوروبي في دائرة القرار، ذلك كله أسهم في تغيير أجندة المجتمع الدولي، حيث لم تعد الولايات المتحدة تعني بمسألة حوار الحضارات ولا بالتعددية، وإنما أصبح عنوان «الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب» يحتل الأولية القصوى، بل إن الموازنة التي خصصت لحوار الحضارات في الولايات المتحدة حولت إلى مايسمى بمشروع «الديبلوماسية الشعبية ومبادرة الديموقراطية والتنمية» الذي استهدفت به الولايات المتحدة تحسين صورتها في العالم العربي والإسلامي، ومعالجة بذور الكراهية المفترضة للسياسة الأميركية، وهو المجرى الذي يصب في النهاية في وعاء تجفيف منابع الإرهاب، ولعلّي لا أبالغ إذا قلت

إن حـوار الحضارات في المفهوم الأميركي أصبح عنواناً لتطلعات مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر فلها عناوين جديدة، ليس الحوار بينها، وإنما الإملاء جوهرها، بحيـث أصبح المطروح الآن بقوة، هو كيفية تطويع الأفكار في العالم العربي والإسـلامي، لكي تصبـح أكثر تجاوباً وملاءمة للتصورات الغربية والأميركية بصفة أكثر خصوصية.

٢- إنني ألحـظ في خطابنا العام اهتماماً كبيراً بالحضارة الغربية من دون الشـرقية، ولسـت هنا بصدد الإقلال من شـأن الأولى، التي لست في حاجـة لأن أعدد إنجازاتها، لكنني أدعو إلى موقـف متوازن لا يتجاهل الحضارات الشـرقية أو الآسيوية، وفي المقدمة منها الهندية والصينية، التي هي حافلة بالقيم الإيجابية التي نحن أحوج مانكون إلى الإفادة منها وتمثلها، أذكر هنا أن الحضارة الغربية بالنسـبة لنا، هي جهد إنسـاني رائـع في التقدم، لا هو نموذج أو مثل أعلى لنا، ولا هو الوحيد في الكرة الأرضيـة، وإنما هو أحد النماذج - أهمها في الواقع - لكنه ككل تجربة إنسانية، لها نجاحاتها وإخفاقاتها.

٣- إننـي أسـجل تحفظـاً شـديداً على فكـرة أن مايحتاج إلـى تصويب ومراجعـة كله في الجانب المتعلق بنا، ولاشـيء مطلـوب في المقابل من الطرف الغربي، ذلك أننا ونحن نعترف بأن لدينا سلبيات كثيرة تستدعي المراجعـة وتسـتوجبها، إلا أن الطرف الغربي يحتاج بـدوره لأن يراجع سياسـاته فضلاً عن حسـاباته ومنظومة قيمة، إذاً ليـس صحيحاً أن الغربيـين يقفون منا موقف المعلّم الذي يوجه تلاميذه، وما على الآخرين إلا السـمع والطاعة، لكن الصحيح أننا جميعاً تلاميذ في الصف عينه،

وكل ماحـدث أنهم تفوقوا وصاروا الأوائل،ونحن تخلفنا كثيراً حقاً، لكننا لم نشهر إفلاسنا، ولدينا الكثير الذي يمكن أن نقدمه لهم، على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي والإيماني على الأقل.

٤- إنـه من الخطـأ البين أن يظـن أن مجتمعاتنا وحدها التـي تعاني من التطـرف والأصولية، وإنما أزعم أن أمثال تلـك الآفات موجودة في كل مجتمع إنسـاني، وأنهـا في العالم العربي والإسـلامي أضعف منها في أقطـار أخرى، ورغم الصدمـة التي حدثت جراء أحداث سـبتمبر، إلا أنني أذكر بأن في إسرائيل حكومة أصولية فعلت بالفلسطينيين أضعاف ما فعلته أحداث سـبتمبر بالأميركيين، من حيث عـدد الضحايا وكمية الدمـار على الأقل، كما أن الأصولية المسـيحية المتحالفة مع الصهيونية تتحكم الآن في القرار السياسي الأميركي، وتقف وراء مخططات هيمنة الإمبراطورية الأميركية وتفكيك وإعادة تركيب خريطة الشرق الأوسط، وهو مايدعونا إلى القول: إن أفعال تلك الأصوليات أشد وطأة وأبعد أثراً وأشد خطراً، على الأقل من حيث إنها هناك في موقع اتخاذ القرار، وهو مالم تبلغه الأصولية في عالمنا العربي والإسلامي، وخصوصاً بعد انهيار نظام «طالبان» في أفغانستان.

٥- إننـي أرجو ألاتغيب عنا حقيقة أن النموذج الذي نقدمه في ممارسـاتنا وحياتنـا العمليـة، سـيظل وحده الذي يمكـن أن يقنع الآخريـن برقيّ مشروعنا وإيجابية تعاليمنا وسمو شـريعتنا، ويجب أن ندرك أننا مهما قلنـا في مديح الإسـلام وتبيان تفوق تعاليمه وإنجـازات حضارته، فإن الذين يتلقون ما نقوله سـيضربون صفحاً عـن كل ذلك ثم ينظرون إلى

أحوالنا ويصدرون في ضوئهـا حكمهم النهائي، فإذا وجدوا في أحوالنا مـا يؤيد كلامنا قبلوه، وإذا وجدوا تفاوتاً بين الاثنين أو تناقضاً، صدقوا أحوالنا وكذبوا كلامنا.

٦- لاينبغـي ولا يعقل أن نجري حـواراً مع الحضارات الأخرى بينما حوارنا مقطـوع مع أهلنا وبني جلدتنا وأبناء حضارتنـا، ولعليّ لا أبالغ إذا قلت إن حوارنا مع الآخر لن يكلل بالنجاح إلا إذا حققنا نجاحاً ولو نسبياً في حوارنا مع أنفسنا وأخوتنا، ومع كل الساكنين في بيتنا العربي والإسلامي الكبير.

٧- أهم ما يعنينا في الأمر كله أن نكون أوفياء لديننا وصادقين مع أنفسـنا ومع الله، فنحن لا نسـعى ولا نتجمل في عيون الغرب، ورضاء الله عنا أهم من إرضاء الغرب وأهله ومن لف لفهم ، وحين نحاول أن نسـتخلص المبادئ التي تعيننا على التعايش والتفاعل الإيجابي مع الغرب، فسـعينا يسـتهدف إزالة التشوهات التي لحقت بصورة الإسلام وتعاليمه وروجت لهـا دوائـر تعددت أهدافها، بأكثر ما يسـتهدف نيل ذلـك الرضى من الغربيين، أننا نوضح التباسـاً ولا نطلب عفواً أو إجازة من أي أحد، كما أننا بالقدر عينه لا نقدم اعتذاراً لأحد.

إننـا إذا أردنا أن ندخل الى صلب موضوعنا فأرجو أن نتفق في البداية على أن القيم الدينية يمكن أن توظَّف لتحقيق الأهداف النبيلة والخيرة، كما يمكن أن توظَّف في خدمة الأهداف الشريرة، ويصبح السؤال المهم للغاية هو لماذا يتجه الناس حيناً إلى الأهداف الأولى، ولماذا يتجهون في حين آخر إلى الأهـداف الثانية، وكلمة «لماذا» هنا تنصبُّ على مجمل الظروف السياسـية والاجتماعية والاقتصادية التي أفرزت هذا الموقف أو ذاك.

## اعتقاد خاطىء

في القرن التاسع عشر كان الاعتقاد الشائع بين المثقفين الأوروبيين أن الكاثوليكية والديموقراطية لا يجتمعان، وتبين لاحقاً أن ذلك اعتقاد خاطئ، لأن الديموقراطية الغربية تعايشت مع الكاثوليكية على النحو الذي يلمسه الجميع، في حين خرجت «محاكم التفتيش» من عباءة الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثامن عشر، وفي أوائل القرن الماضي أشاع بعض الاقتصاديين أن النجاح الاقتصادي الذي حققته دول شمال أوروبا راجع إلى الأخلاق البروتستانتية، في حين تنبأوا بأن الجنوب الكاثوليكي سيظل فقيراً، لكن ما أن انتصف القرن حتى تبين خطأ ذلك الادعاء، حيث نمت إيطاليا وفرنسا - في الجنوب - بوتيرة أوسع من أوروبا البروتستانتية، وفي وقت لاحق أرجع بعض الباحثين الإزدهار الذي عاشت في ظله دول جنوب شرق آسيا إلى كون «الكنفوشية» تساعد على الحيوية الاقتصادية، لكن الأزمات التي واجهتها بعض تلك الدول دعت زعماء تلك الدول إلى القول: إن القيم الآسيوية تنطوي على خصائص سلبية.

بوسعنا والأمر كذلك، أن نضيف أن المجتمعات الإسلامية التي تعاني من التخلف الآن هي ذاتها التي عاشت في ظل نهضة عظيمة في طور سابق. الأمر الذي يبرئ ساحة التعاليم من المسؤولية عن الأوضاع البائسة التي يعيش في ظلها العالم العربي والإسلامي.

لقد استشهد كاتب إسرائيلي ببعض المعلومات التي ذكرتها تواً لكي يدحض المقولة التي يروجها بعضهم عن تعذر اجتماع الديموقراطية مع الإسلام، وكان الكاتب، «شلومو افنيري» أستاذ العلوم السياسة في الجامعة

العبرية، يعلق بما كتبه على نتائج الانتخابات التركية الأخيرة التي نجح فيها حزب العدالة والتنمية ذو الجذور الإسلامية، ولكنها في غيبة الديموقراطية، التي إذا توافرت فإن الإسلام سيتعايش معها، كما تعايشت أوروبا معها.

هـذا المعنـى ردده أيضاً «فريـد زكريا» رئيس تحرير مجلـة «نيوزويك» الأميركية، الذي كتب مقالة نشرتها مجلة السياسة الخارجية (فورين بوليني عدد نوفمبر وديسمبر)، الذي خلص فيه إلى حد اعتباره عدواً للتقدم، ومن ثم استسـهلوا اتهامه بالمسـؤولية عن تدهور الأوضاع في الدول الإسلامية، متجاهلين مسؤولية الخرائط السياسية والأداء السيء في العالم الإسلامي عـن تدهور تلك الأوضاع، وقال في هذا الصـدد: إن الذين يروجون لفكرة تعارض الإسـلام مع الحداثة، يقفون في المربع عينه الذي يقوده المتطرفون الذين يرفضون الحداثة والديموقراطية بحجة تعارضها مع الإسلام.

ماذكـره الكاتبان صحيح من حيث المبدأ، لكن أحد المشـكلات التي تثار فـي هذا الصدد أن النخبة الغربية لا تكتفي بموقف التلاقي بين الإسـلام والحداثـة، بل تريده تعاطياً مع الحداثة كما يفهمها الغربيون، وهو ما يمكن أن يعبَّـر عنه بالحداثة «المستنسـخة»، الأمر الذي يضعنـا أمام مفارقه لها تأثيرها البالغ على العلاقة بين الإسـلام والغـرب، وتتمثل تلك المفارقة في أن الغربيين الذين يتبنون شـعارات الليبرالية والتعددية والتعايش مع الآخر، يقبلون بهذه القيم على الصعيد الوطني ويرفضونها على المسـتوى العالمي، بمعنـى أنهم إذا قبلو بالتعددية الحزبية والسياسـية، فإنهم يرفضونها على الصعيد الحضـاري، ويقبلون بالآخر المختلف سياسـياً وفكرياً، لكنهم غير قادرين على اسـتيعاب فكـرة أن يختلف الآخر حضارياً، وتلك إشـكالية لا

سبيل إلى حلها في الجانب المتعلق بالمسلمين، الذين من حقهم أن يكون لهم نموذجهم الحضاري الذي يختلف في مقاصده ومنظومة قيمه، وليس هناك ما يجبرهم على الالتحاق أو الانسحاق أمام النموذج الحضاري الغربي، ولا مفر هنا من الإشاره إلى أن شعور الغربيين بتفوقهم، وبكونهم الجنس الحضاري الغربي، وعدم وجود أي منافس له على وجه البسيطة، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، إن بعضاً مما يعتبره الغربيون عداء من جانب المسلمين للحداثة، هو في حقيقة الأمر «اختلاف» لم يحتملوه ويرفضون استمراره، انطلاقاً من تحفظهم على مبدأ «المغايرة» وإصراراً من جانبهم على أن يكون الآخرون استنساخاً لهم، آية ذلك أن الحقل الاجتماعي، وكل ما يتعلق بالأحوال الشخصية وعلاقة الجنسين بعضهم ببعض، أصبحت تتخلله اختلافات كثيرة بين النموذجين الغربي والإسلامي، ولعلي أشير هنا إلى ما طرأ على مفهوم الأسرة من تطور، والمحاولات اللحوحة من جانب المنظمات الغربية لإدخال زواج المثليين مثلاً ضمن نطاق الأسر الجديدة، واعتبار ذلك من قبيل «الحداثة» التي بلغتها بعض المجتمعات الغربية، وهو ما يؤدي إلى اتهام المجتمعات الإسلامية بالتخلف ورفض الحداثة في تجلياتها المختلفة.

يجرنا الحديث هنا عن الاختلاف في النموذج الحضاري والمفارقة في تعاطي قيمه التعددية إلى حديث آخر عن مفارقة أخرى تهم السلوك الغربي بالكيل بمكيالين فيما يخص حقوق الإنسان، وحق تقرير المصير بصفة أخص، وما الحاصل من قهر يومي للفلسطينيين إلا نموذج لذلك السلوك الذي يفتقد إلى العدل والإنصاف، ويتعارض مع أبسط مبادئ حقوق الإنسان، والمأسوف عليه أن الموقف الغربي بصفة عامة والأميركي بصفة خاصة يقف

فـي هذه القضية في صف المعتدي والغاصب، والمنكر على المظلوم حقه في أن يدافع عن نفسه.

إن السجل حافل بالملفات التي تندرج تحت العنوان عينه، وليس غائباً عن أذهاننـا الـدور الذي لعبته الدول الغربية في الدفاع عن حق سـكان تيمور الشـرقية في الاسـتقلال عن أندونيسـيا، ثم إنكار تلك الـدول ذات الحق للشيشانيين والكوسـوفيين في البلقان، وتجاهلهم لتطلعات مسلمي كشمير في الهند وسينكيانج في الصين وزنجبار في تنزانيا.

إذا أضفت إلى ما سـبق تلك المعاملة التي تتسم بالتمييز والتعسف التي يلقاها المسلمون في الولايات المتحدة وفي بعض الدول الغربية، التي أصبحت تنظر إلى المسـلمين جميعاً باعبتارهم مشبوهين أو متهمين، فإن المشهد في جملته يستدعي السـؤال التالي: هل يمكن أن يتعامل المسلم باطمئنان وثقة مع السـلوك الغربي في حين تثقل ضميره تلك الهموم والأحزان، التي يرى الغرب إما ضالعاً فيها أو مسؤولاً عنها؟

ثمة سؤال آخر متصل بما سبق هو :ألا يعد ذلك السؤال الغربي تطرفاً من شأنه أن يعبئ المشاعر الإسلامية بالغضب.الأمر الذي يهيئ الفرصة لتفريخ تطرف آخر على الجانب المقابل، يمثل رد فعل تصعب السيطرة عليه.

إن حقائق الواقع لها تأثيرها القوي في تشكيل المواقف، على نحو ينعكس سـلباً على مفهوم التعاليم، وإذا كان قد قيل إن اللّه ليزع بالسلطان ما لايزع بالقـرآن، فتلك إشـارة الى أن التعاليم وحدها لا تكفي في صياغة سـلوك الناس.

اللهم إلا إذا كانوا قد ربوا عليها منذ نعومة أظفارهم وعاشوا في ظلالها طوال الوقت، بحيث تظل الظروف مواتية لها، وهذه الأوضاع النموذجية تشكل استثناء في الواقع المعاش، ومن ثم فإن التعاليم تظل حداً أقصى لما يجب أن يكون عليه السلوك، يحتذيه الناس قدر الإمكان ويتطلعون إلى بلوغ مرتبته، فضلاً عن أنها تظل المرجعية التي يسترشد بها ويحتكم اليها في تقويم سلوك الأفراد أو المجتمعات.

**ضوابط لابد منها**

إن الموقف الفكري الإسلامي من الآخر، سواء غربياً أكان أم شرقياً، تحدده الضوابط التالية:

- فالناس في المفهوم الإسلامي خلقوا من نفس واحدة، من أب واحد وأم واحدة، ومن ثم فعلاقة النسب تربط بينهم ﴿**يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ النساء ١.

- ليس ذلك فحسب، وإنما في كل إنسان نفخة من روح اللّه : ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ الحجر ٢٩، ومن ثم فلكل إنسان كرامته التي ينبغي أن تصان، بصرف النظر عن لونه أو جنسه أو دينه، بمعنى أن استحقاق الكرامة مترتب على حقيقة واحدة أنه إنسان: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ الإسراء ٧٠.

- ثم إن الاختلاف بين الناس شأن إرادة اللّه لحكمة قدرها، وهو الخالق القدير الذي كان بوسعه أن يخلق الناس أمة واحدة، كما أطلقهم من

نفس واحدة: ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين**﴾ هود ١١٨، ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ يونس ٩٩.

- والأصل أن يتعاون الناس في البر والخير، وذلك أحد مبررات الاختلاف الذي هو سنَّة من سنن اللّه في الكون :﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم إن اللّه عليم خبير**﴾ الحجرات ١٣.

- وطالما أن الآخر له شرعيته في المفهوم الإسلامي، وأن المطلوب هو التعارف والتعاون في البر والخير، فمن الطبيعي أن تكون المسألة هي الأصل الذي يتيح للتعاون المنشود أن يحقق المراد منه، وفي النداء القرآني: ﴿**يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾ البقرة ٢٠٨و﴿**لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم**﴾ الممتحنة ٨، ﴿**ولا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين**﴾ البقرة ١٩٠.

هذه الآيات التي أوردناها تحث على مسالمة الجميع وتنهي عن العدوان عليهم، لكنها تعلق ذلك على شرط واحد هو رعاية حقوق المسلمين والكف عن مقاتلتهم أو فتنتهم في دينهم، أي أن المسلمين في منظومتهم الفكرية لا يبدأون أحداً بعدوان ولكنهم يمدون يد التعايش والتعاون إلى الجميع إلا إذا اعتدى أولئك على كرامة المسلمين وحرماتهم، وفي هذه الحال تصبح الجبهة المعتدية «دار حرب» يجري عليها ما يجري على دار الحرب من أحكام، ويظل مصطلح دار الحرب عنواناً استثنائياً لحال يعتدي فيها

الآخرون على المسلمين، في حين أن العنوان الأصلي لعلاقة المسلمين بالعالم الخارجي أنه دار السلام أو أمة الدعوة.

• هل يتعامل المسلمون مع الآخر انطلاقاً من هذه المفاهيم؟

ردي على السؤال في شقين: الأول أننا يجب أن نعترف بأن ثمة اتجاهات في العالم العربي والإسلامي التبست عليها المفاهيم فأساءت التعبير عن الرؤية الإسلامية،وكان سوء التعبير مقدمة لسوء التصرف. الأمر الذي يدعونا إلى ضرورة ترشيد تلك الاتجاهات وتصويب موقفها الفكري.

أما الشق الثاني فيتمثل في أن الانحرافات الفكرية التي نعاني منها هي من تجليات خلل في البيئة السياسية والثقافية في الداخل، وقهر وظلم يمارس من الخارج، فالطغاة والمستبدون يهيئون أجواء مؤاتية لغيبة التسامح وانطلاق العنف، ولا ينبغي أن نتوقع من الذين يجلدون الناس ويذلونهم، أن يستقبلهم الناس بالبشاشة والورد، أما القوى الكبرى التي تمارس العدوان على بلاد المسلمين أو تتضامن مع المعتدين وتزودهم بالمال والسلاح، فينبغي أن لا تفاجأ إذا ردَّ الناس على ظلمهم بتصنيفهم ضمن دار الحرب، وتعددت اجتهاداتهم في صد تلك الحرب وردع المعتدين.

والأمر كذلك، فإنني أحسب أن المشكلة ليست في اعتدال المسلمين أو تطرفهم ، وإنما هي - بالدرجة الأولى - في وطأة الظلم الذي يقلص تلقائياً من مساحة الاعتدال، ويغذي طاقات التطرف بغير حدود.

• • • • • • •

# أصول العلاقات الدولية في الإسلام (*)

الدكتور/ محمد الدسوقي - مصر

(*) مقال منشور في الوعي الإسلامي عدد ٩٢ شعبان ١٣٩٢هـ - سبتمبر ١٩٧٢ - ص٥٦ - ٦٣ - وعدد ٩٣ رمضان ١٣٩٢هـ - اكتوبر ١٩٧٢ - ص٥٦ - ٦٢

يختلف الاسلام عن غيره من الأديان السماوية بأنه دعوة عالمية ورسالة للبشرية كافة بعث بها محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم الى صراط مستقيم.

وعالمية الاسلام تبدو واضحة لمن يدرس هذا الدين دراسة واعية منصفة ففضلا عن الآيات والأحاديث التي تتحدث عن أن الإسلام جاء للناس جميعا، وأن معجزته الخالدة ختم الله بها الكتب المنزلة، وأن محمدا ﷺ آخر الرسل والأنبياء، فان تعاليم هذا الدين القويم تبرز في جلاء أنه رسالة الهدى والخير إلى البشرية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد اعتبر الاسلام الناس أمة واحدة لا يتفاضلون بألوانهم وأجناسهم وأحسابهم، ولكن بالتقوى والعمل الصالح، وبين أنهم سواسية يتمتعون بحقوقهم المشروعة دون تمييز بين فرد وآخر، وأعلن أن أساس العلاقة بين الناس على تباين ألسنتهم وتباعد ديارهم المحبة والتآلف والتعارف والتعاون على الخير والبر: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾** [1].

وهذه المبادئ التي قررت المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات تعد ثورة ضد العصبية والجنسية والقبلية، كما تعد أول صيحة عامة في تاريخ العالم تنادي بالإخاء والمحبة وتدعو الى احترام العدالة والفضيلة، حتى يعيش الجميع حياة طيبة تليق بالإنسان الذي كرمه الله وجعله خليفة له في أرضه.

---

١- الآية: ١٣ في سورة الحجرات.

وإذا كان الإسلام قد قرر مبدأ المساواة والوحدة بين الناس، وقضى بهذا علـى مزاعم العنصرية والطائفية، فإنـه من جهة أخرى قرر مبدأ التوحيد، ذلك المبدأ الذي حرر الإنسان من كل سلطان غير سلطان الله، فشعر بعزته وكرامته، ولم يعد آلة يحركها الطغاة، فقد أصبحت له شـخصيته المسـتقلة التي ترعى واجبها قبل أن تسـعى وراء حقها، ومن ثم كان للفرد في المجتمع الاسـلامي مكانته ورسـالته، وكان حجر الزاوية في بناء هذا المجتمع، وقد فطن إلى هذا علماء القانون حين ذهبوا في الوثيقة العالمية لحقوق الانسان الى أن الفرد هو دعامة الدولة، وقد سبقهم الإسلام في إعلان هذه الفكرة بأكثر من ثلاثة عشر قرنا [1].

والإسلام في تعاليمه لم يقف عند حد هذه المبادئ الرائعة، كما لم يقف عنـد فرض العبادات، بل وضع أيضـا القواعد والأصول التي تنظم ضروب النشـاط الإنساني كله، وتحمى الحقوق وتمنع الفسـاد، لأنها جاءت للناس جميعا، خاطبت الفطرة الإنسانية وقدرت العقل البشري أرفع تقدير، ولهذا كله جاءت تعاليم هذا الدين العالمي صالحة لكل زمان وكل مكان [2].

ولإيمان المسـلمين الأوائل الصادق بعالمية هذا الدين وما يجب عليهم من الجهاد نحو تبليغ رسـالته إلى الناس قاطبـة - حملوا أرواحهم على أكفهم وانطلقوا في الأرض لا يخشـون الا اللّه، ولا يكرهون أحداً على الإيمان لأنه لا أكراه في الدين.

---

١- أنظر الإسلام والعلاقات الدولية للدكتور مصطفى الحفناوي (مجلة المسلمون - العدد ٣ من السنة الثالثة ص ٢٦٨).

٢- راجع العلاقات الدولية في الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٩ وما بعدها.

وفتح الله على المسلمين بلادا كثيرة، وانتشر الاسلام في فترة وجيزة في بقعة شاسعة من العالم.

ونجم عن هذا الفتح العظيم وانتشـــار الإسلام السريع مشكلات مختلفة بين المســـلمين وغيرهم، وكانت هذه المشـــكلات - وما زالت - تختلف نوعا وكما باختلاف الزمان، ولكن أصول معالجتها كما قررها الإسلام لا تختلف ولا تتعارض.

ويجدر قبل الحديث عن هذه الأصول الإشارة إلى ما تواضع عليه الفقهاء من تقسيم الديار ثلاثة أقسام: [1]

دار الإســـلام، ودار العهد، ودار الحرب، وهذا التقسيم هو بحكم الواقع لا بحكم الشرع، لأن الإسلام لم يقيد الدولة الاسلامية بحدود جغرافية أو مكانية [2]، فهو دعوة عالمية، ولكن تطبيق أحكامه مرتبط بسلطان المسلمين، فكلما اتســـعت دار الإسلام اتســـع نطاق تطبيق أحكام هذا الدين، ومن ثم اقتضـــت الظروف أن يكون الإســـلام اقليميا حتى تعم دار الاســـلام العالم بأســـره [3]. وليس في هذا التقســـيم دلالة على أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو الحرب، ولا أن الإسلام انتشر بحد السيف كما يزعم كثير من المستعمرين ومن سلك سبيلهم من الباحثين.

---

١- أنظر نظرية الحرب في الإســـلام للشـــيخ محمد أبو زهرة ص ٣٠، ويضيف بعض الفقهاء دارا رابعة، وهي دار البغـــي، يكـــون الأمر فيها للبغاة، وهم الخارجون على الإمام الحق بغير الحق. راجع تبيين الحقائق ج ٣ ص ٢٩٣

٢- أنظر الإسلام والعلاقات الدولية، للدكتور مصطفى الحفناوي.

٣- أنظر من الفقه الجنائي المقارن، للمستشار أحمد موافي، ص ٩٠

والذي لا خلاف عليه بين الفقهاء أن الدار التي تحكم بسلطان المسلمين وهم حماتها وأهل المنعة فيها هي دار الإسلام وأن دار العهد هي دار غير المسلمين الذين أرتبطوا مع المسلمين بعهد [1].

وأما تعريف دار الحرب فقد اختلف فيه الفقهاء على رأيين: أحدهما: أن دار الحرب هي الدار التي لا يكون فيها السلطان للحاكم المسلم ولا تنفذ فيها أحكام الإسلام، وليس بين المسلمين وأهلها عهد، وهذا رأي أبي يوسف ومحمد وجمهور الفقهاء.

والرأي الثاني يذهب إلى أن كون السلطان لغير المسلمين لا يجعل الدار دار حرب، بل لا بد من تحقق شروط ثلاثة مجتمعة لتصير الدار دار حرب.. وهذه الشروط هي:

**أولا:** ظهور الأحكام غير الاسلامية.

**ثانيا:** أن يكون الاقليم متاخما للديار الاسلامية بحيث يتوقع منه الاعتداء على دار الاسلام [2].

**ثالثا:** ألا يأمن المسلم ولا الذمي فيها بحكم الاسلام، بل يأمن فيها بعهد يعقده.

وهذا رأي أبي حنيفة والزيدية وبعض الفقهاء.

١- نظرية الحرب في الإسلام ص ٢٠، والعلاقات الدولية في الإسلام، ص:٥٢

٢- ان اشتراط المتاخمة لتوقع الاعتداء أصبح في عصرنا غير ذي موضوع، فقد تطورت أسلحة الحروب و لم يعد القتال في حاجة الى متاخمة (وانظر المصدر السابق ص ٥٤) وجاء في تفسير المنار أن دارالحرب بلاد غير المسلمين وإن لم يحاربوا، وكانت القاعدة أن كل من لم يعاهدنا على السلم يعد محاربا (تفسير المنار ج٦ ص ٤٠٩).

**قال الكاساني:** لا خلاف بين أصحابنا في أن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها، واختلفوا في دار الإسلام أنها بماذا تصير دار الكفر، قال أبو حنيفة أنها لا تصير دار الكفر إلا بثلاثة شرائط: أحدهما: ظهور أحكام الكفر فيها، والثاني أن تكون متاخمة لدار الإسلام، والثالث: ألا يبقى فيها مسلم ولا ذمي آمنا بالأمان الأول وهو أمان المسلمين.

**وقال أبو يوسف ومحمد:** أنها تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها[1].

ويرى بعض المعاصرين [2] أن رأي الإمام أبي حنيفة أرجح من رأي الصاحبين وجمهور الفقهاء، لأنه ناط الحكم على الدار بأنها دار حرب بزوال أمن المسلمين فيها، ويتوقع الاعتداء عليهم منها، وهذا يوافق الأصل في فكرة الحروب الإسلامية وأنها لدفع الاعتداء، وحماية الضعفاء، ونشر الأمن والسلام.

وقد أومأت آنفا إلى أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلم، وأن الحروب ليست غاية في ذاتها، فعالمية الإسلام كما أسلفت قامت على أسس وطيدة من المساواة والتعاون والتآلف والعدالة وحماية الفضيلة بين الناس جميعاً، وهذه الأسس تفرض أن تكون العلاقات الإنسانية طابعها المودة والتكافل والإخاء، وتدل على أن الحرب لا تكون مشروعة إلا لحماية الأمة من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

---

١- انظر بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٢٠

٢- أنظر العلاقات الدولية في الإسلام ص: ٥٤

وعلاقة المسلمين بغيرهم في وقت السلم وأن تلاقت عند أصول كلية عامة إلا أنها تختلف اختلافات جزئية، نظراً لاختلاف أحوال غير المسلمين مع المسلمين فغير المسلمين أما أن يكونوا أهل ذمة أو مستأمنين، وأما أن يكونوا أصحاب عهد أو لا تربطهم بالمسلمين رابطة ما.

وما دام أهل الذمة رعية اسلامية أو جزءاً من المجتمع الإسلامي يتمتعون فيه بكل الحقوق التي يتمتع بها المسلمون من الرعاية والحماية والإنصاف والمودة مع ضمان الحرية الدينية لهم[1]، وذلك في مقابل ضريبة مالية يسيرة تعرف بالجزية تجب على الرجال القادرين دون النساء والأطفال فإنهم لهذا خارجون عن نطاق المعاملات الدولية بمفهومها الخاص والعام.

والمستأمنون هم الذين يدخلون البلاد الإسلامية على غير نية الإقامة المستمرة فيها، ويسمح لهم بذلك لمدة معلومة يجوز تجديدها، فالقاعدة هي عدم الإقامة الدائمة وإلا تحول المستأمن إلى ذمي وأصبح رعية اسلامية[2].

والإسلام وهو دين العدل والحرية والسلام عامل المستأمن الوافد على دياره معاملة كريمة انسانية لا تعرفها القوانين الوضعية، فهو مادام محافظاً على عقد الأمان أو شروط الإذن بالإقامة المحدودة في ديار الإسلام له الحرية في التنقل ومباشرة نشاطه الذي وفد من أجله كالتجارة أو الدراسة أو السياحة، وهو آمن على نفسه وماله ولو كان ينتمي لدولة نشب القتال بينها وبين المسلمين.

---

١- انظر في حقوق أهل الذمة في الإسلام الخراج للامام أبي يوسف، ص:١٤٣ وما بعدها، وارشاد الأمة الى أحكام الحكم بين أهل الذمة للشيخ محمد بخيت المطيعي.

٢- انظر العلاقات الدولية في الاسلام ص٦٨

ومعنى هذا أن المستأمن الذي يفد إلى ديار الإسلام ليس بلازم أن يكون من دولة بينها وبين المسلمين عهد وميثاق، فقد يكون من دولة لا تربطها بالمسلمين رابطة ما، أو بينها وبين المسلمين حالة حرب، وهو ما دام قد أذن له بدخول ديارنا فقد أصبح في حماية المسلمين مدة أمانته، وعليهم أن يوفروا له هذه الحماية ولو تعرضوا بسبب ذلك لخوض غمار الحرب، فلو قال المشركون للمسلمين أدفعوه (أي المستأمن) إلينا وإلا قاتلناكم وليس بالمسلمين عليهم قوة فلا ينبغي للمسلمين أن يفعلوا ذلك لأنه غدر بأمانة[1].

ويذهب جمهور الفقهاء إلى أكثر من هذا فيرون أن مال المستأمن الذي اكتسبه في دار الإسلام يبقى على ملكه ولا تزول عنه ملكيته ولو عاد إلى دار الحرب وقاتل المسلمين[2].

٨- ويتمتع المستأمن مع هذا بحريته الدينية، كاملة، ولكنه يخضع لأحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالمعاملات المالية سواء كانت هذه المعاملات بينه وبين مسلم أم بينه وبين ذمي أو مستأمن مثله.

وأما فيما يتعلق بالحدود فقد اختلف فيه الفقهاء، فيرى بعضهم إقامة جميع الحدود عليه، ويذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه لا يقام عليه من الحدود إلا ما فيه حق العباد[3]، وهو رأي الإمام محمد أيضا [4]، وذلك

---

١- شرح السير الكبير ج ٣ ص٢٠٠

٢- العلاقات الدولية في الاسلام ٦٨، وانظر المغني لابن قدامة الحنبلي ج ١ ص ٤٢٧

٣- شرح السير الكبير ج ٤ ص ١٠٨

٤- انظر الأصل ورقة ٩٥ والمبسوط ج ٩ ص ٥٥

لأنـا ندبنا إلى معاملته معاملة تحمله على الدخول في دارنا ليرى محاسـن الإسـلام فيسلم، وهو بالأمان التزم حقوق العباد، لأن دخوله لقضاء حاجته وهي تحصل بذلـك، فالتزم أن ينصفهم كما ينصف، وان لا يؤذي أحداً كما لا يؤذى.

وأمـا حقوق الله فلا تلزمه لأنه لـم يلتزمها، ألا ترى أنه لم تضرب عليه الجزية ولم يمنع من رجوعه إلى دار الحرب[1].

والـرأي الـذي أخذ به جمهور الفقهاء هو عـدم التفريق بين حقوق الله وحقوق العباد، وأن المسـتأمن يخضع لأحكام الشـريعة في جميع الحدود، وهذا الرأي أكثر اتسـاقا مع المبادئ الإسـلامية، لأنه يتفق مع ما ينبغي أن تكون عليه أمور الدولة من منع الفساد، وكمال السيادة على كل من يقيم في ربوعها[2].

وقد تحدث الامام محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ والذي يعد مؤسـس القانون الدولي في العالم كلـه - عن دار العهد أوالموادعة [3]، ويعـد أول فقيه تحدث عن هذه الدار، فمن سـبقه من الفقهاء الذين كتبوا في السـير كانوا يتحدثون عن دار الإسلام ودار الحرب فقط، وكانت العهود تبرم أما بين المسـلمين وأهل الذمة الخاضعين لهم، أو بينهم وبين الحربيين والمسـتأمنين، ولكن الإمام محمدا [4] تحدث عـن دار لا تخضع في الحكم

١- أنظر تبيين الحقائق ج ٣ ص ١٨٢

٢- العلاقات الدولية في الإسلام ص ٧١

٣- أنظر شـرح السير الصغير، المبسـوط ج ١٠ ص ٨٥، وباب الموادعة في شرح اليسير الكبير ج ٤ ص ١ وما بعدها.

٤- أنظر العلاقات الدولية، ص ٥٦

للمسلمين فأهلها إذن ليسوا بأهل ذمة، ثم هم قد دخلوا مع المسلمين في عهد موادعة ومسالمة، فخرجوا بهذا عن أن يكونوا حربيين.

ويرى هذا الإمام أن الموادعة غير جائزة إلا في حالة ضعف المسلمين فإن كان بهم قوة فهي ليست جائزة وقد بنى محمدا الموادعة [1] على صلح الحديبية، فهذا الصلح كان موادعة مؤقتة بين النبي ﷺ ومشركي مكة.

ومهما تكون الظروف التي تدفع بالمسلمين إلى موادعة غيرهم، فإن العلاقة بينهم وبين أهل دار الموادعة تقوم على احترام العهود المكتوبة وغير المكتوبة إلى أقصى حد، وعدم الغدر والخيانة مطلقا، والتعاون المتبادل في كل شيء إلا فيما يكون سببا لتقوية غير المسلمين من السلاح ونحوه فإن على المسلمين ألا يمكنوا غيرهم موادعين أو حربيين من الحصول على ما يزيدهم قوة وبأساً [2].

ويفصل الإمام محمد في دقة ما يجب على المسلمين من رعاية العهد والتحرز عن الغدر مع الموادعين ما تحسن الإشارة إلى طرف منه في شيء من الإجمال، لما له من دلالة على سمو النظرة الإسلامية في معاملة غير المسلمين، وأيضا على التفكير الإنساني الذي سبق به محمد فقهاء القانون الدولي حتى في العصر الحديث.

يرى هذا الإمام أن الموادعين إذا شرطوا في أصل الموادعة أنهم إن غدروا

---

١- شرح السير الكبير ج ٤ ص ٦١

٢- أنظر شرح السير الكبير ج ٣ ص ٧٥، ١٧٧، ٢٧٦

فقتلوا رهن المسلمين فدماء رهنهم لنا حلال، ثم قتلوا هم رهننا، فإن دماء رهنهم لا يحل لنا [1].

ومع أن قوله تعالى ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به**﴾ [2] قد يبيح قتل رهن الموادعين إذا قتلوا رهننا يذهب محمد إلى أن رهن الموادعين أصبحوا بدخولهم دارنا ذمة، لهم حرمة المسلمين في حقن الدماء إلا بحق، وهم لم يقتلوا بأنفسهم أحداً من رهننا وعلى الحاكم المسلم أن ينتصف لهؤلاء المظلومين ممن أعتدوا عليهم. وكما لا يجوز قتل الرهن في هذه الحالة لا تجوز الإساءة الى الرسل في كل الحالات، فهم في حماية المسلمين إلى أن يعودوا إلى بلادهم، وإن كان هناك خلاف بين الفقهاء حول مدى خضوع الرسل إلى الأحكام الإسلامية في مجال العقوبات لكنهم يتفقون حول خضوعهم لأحكام المعاملات الاسلامية [3].

وما دامت الموادعة جائزة في حالة ضعف المسلمين دون قوتهم، فإنهم إن آنسوا من أنفسهم القوة، وبدا لهم نقض العهد فكيف يتم هذا النقض بينهم وبين الموادعين، وهو نقض ليست الغاية منه الرغبة في الحرب لذاتها، ولا السعي وراء مغنم مادي ولكن لأداء الرسالة المقدسة التي ناطها الله بهم..

يقول الإمام محمد: ولو بدا للإمام بعد الموادعة أن القتال خير فبعث إلى ملكهم ينبذ إليه فقد صار ذلك نقضا، ثم يستطرد فيقول: ولكن لا ينبغي للمسلمين أن يغيروا عليهم وعلى أطراف مملكتهم حتى يمضي من الوقت

---

١- شرح السير ج ٤ ص ٤٢

٢- الآية: ١٢٦ في سورة النحل.

٣- أنظر: العلاقات الدولية في الاسلام، ص ٧٢

مقدار ما يبعث الملك إلى ذلك الموضع من ينذرهم، لأنا نعلم أن ملكهم بعدما وصل الخبر إليه لا يتمكن من ايصال ذلك إلى أطراف مملكته إلا بمدة فلا يتم النبذ في حقهم حتى تمضي تلك المدة.

وبعد مضي المدة لا بأس بالإغارة عليهم وإن لم يعلم المسلمون أن الخبر أتاهم لأنه ليس على المسلمين إعلامهم، ولكن إن علم المسلمون يقينا أن القوم لم يأتهم خبر فالمستحب لهم أن لا يغيروا عليهم حتى يعلموهم، لأن هذه شبيهة بالخديعة، وكما على المسلمين التحرز عن الخديعة يحق عليهم التحرز عما يشبه الخديعة [1].

فهل عرفت القوانين الدولية الوضعية مثل هذه المبادئ السامية وهل يراعي إنسان المدنية المعاصرة في حروبه المدمرة شيئا منها، أو أنه يفخر بإبادة الضعفاء والأبرياء، وأخذ الآمنين على غرة خديعة ومكرا؟.

فإذا كان نقض العهد من قبل الأعداء فلا بأس على المسلمين أن يغيروا على أطرافهم وإن علموا أن الخبر لم يصل إليهم، ويستدرك الإمام محمد قائلا: ومع هذا فإن أحاط العلم لأهل ناحية من المسلمين بأن ذلك الخبر لم يصل إلى أهل ناحيتهم فليس ينبغي أن يقاتلوهم حتى ينبذوا إليهم، وهذا على سبيل الاستحسان [2]، ذروة في التفكير الإنساني الخالص الذي يستمد منابعه من الإيمان الصحيح والخلق الكامل والورع الصادق والضمير الحي، والعدالة الرحيمة، والأخوة الإنسانية الكريمة، ما أحوج البشرية اليوم إليه

---

١- شرح السير الكبير ج ٤ ص ٧

٢- شرح السير الكبير ج ٤ ص ٨

- فإنها على ما حققت في مجال العلم والحضارة - فقيرة أشد الفقر إلى هذا اللون من التفكير الذي يعيد إليها انسانيتها وأمنها واستقرارها.

١٢- وأما غير الموادعين الذين ليست بينهم وبين المسلمين حرب فعلية ولا تربطهم بالمسلمين رابطة ما، فإنهم ماداموا لا يؤذون المسلمين ولا يحرضون على إيذائهم، فإن العلاقة التي تربط المسلمين بهم تقوم على نفس الأسس التي تقوم عليها العلاقة بين المسلمين والموادعين من الإحسان إليهم والبر بهم وتبادل المنافع معهم إلا فيما يكسبهم قوة ومنعة، وإذا أردنا السير إليهم لتبليغهم دعوة الإسلام فلا بد من إعلامهم وعدم الاعتداء عليهم أو الغدر بهم وأخذهم على غرة [١].

## أصول العلاقات الدولية في الإسلام

### لماذا يحمل المسلمون السلاح؟

الإسلام دين سلام ومودة وأخوة بين الناس جميعاً. من آمن به ومن لم يؤمن فلماذا أباح الحرب، وحض علي الجهاد، وأعد للشهداء في سبيله الأجر الجزيل والنعيم المقيم؟

إن الحرب في الإسلام ليست أصلاً من أصوله، وهو يرفض كل ألوان الإكراه في الإيمان به. لأن العقيدة الصحيحة أساسها الإقتناع الصادق القائم على الوجدان والبرهان. ولا يتسنى لأية قوة في الأرض أن تفرض على إنسان عقيدة يأباها قلبه وينفر منها عقله، فما هي الغاية إذن من الحروب الإسلامية؟

---

١- المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٩، وج ٤ ص ق١، ٢٣

إن الإسلام كما أشرت غير مرة دين عالمي جاء للناس كافة وقد بلَّغ الرسول ﷺ هذا الدين إلى العرب، وتوفى عليه السلام بعد أن ترك قومه على المحجة البيضاء، وأصبح على هؤلاء العرب الذين اختار الله منهم خاتم رسله أن يحملوا هذا الدين إلى غيرهم من الأمم. فالشرائع لا تلزم إلا بعد السماع كما يقول الإمام محمد[1]، ومن هنا كان غير العرب إذا لم تصل إليهم دعوة الإسلام لا حجة عليهم، إنما تقع الحجة على الذين بلغهم هذا الدين ثم قصروا في تبليغه إلى سواهم.

فمن أجل تبليغ هذا الدين إلى الناس في كل زمان ومكان وحماية الدعوة إليه فرض الجهاد، وكان ماضياً إلى يوم القيامة، إنه جهاد من أجل حماية التبليغ فحسب. فمن شاء بعد ذلك فليومن ومن شاء فاليكفر.

فقد أكدت حوادث التاريخ أن الطغاة لا يتركون الناس أحرار فيما يدينون به ويسمعون له. وفي حياة الرسول ﷺ المثل الحي على ذلك فهو عليه السلام قد دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام فآذوه واضطهدوه. وعذبوا من صدقه وأتبعه ثم أخرجوه وأصحابه من مكة.

إن مشركي مكة أرادوا الحجر على القلوب والعقول. وأبوا أن يدعوا للناس الحرية في التفكير والاختيار، فهم بهذا يحمون مبدأ الإكراه في الدين. فلو ترك هؤلاء الكفار وشأنهم لطغا الباطل على الحق ولطمس النور الظلام[2] فكان الإذن بالقتال واتخاذ القوة لدفع هذا الظلم الذي

---

١- شرح السير الكبير ج ٤ ص ٢٩١.

٢- نظم الحرب في الإسلام لجمال الدين عباد، ص: ٢١.

تعرض له المؤمنون لأنهم قالوا ربنا الله: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**﴾ [1].

فغاية الحرب في الإسلام تنحصر في تحرير الناس من الطغاة فلا يكون في الأرض سلطان غير سلطان الحق تبارك وتعالى. وبذلك لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

غاية الحرب الإسلامية هي تحقيق الحرية الدينية التي حماها الإسلام وجعل لها قانوناً عادلاً ونظاماً محكماً.

وأكبر ما يسجل له من أمرها أنه لم يشرعها لنيل المغانم. وفرض المغارم. ولكنه جعلها وسيلة عند الضرورة لنشر كلمة الله بين الأمم [2].

وأول ما يجب على المسلمين إذا ساروا إلى غيرهم أن لا يبدأوا هم بالحرب أو الاعتداء لأنهم لم يسعوا رغبة في القتال لذاته فهم أصحاب دعوة. وليس عليهم إلا البلاغ. ومن هنا كان واجباً أن يسبق الحرب أمران إذا ووفق على أحدهم فلا قتال:

الأمر الأول: البدء بالدعاء إلى الإسلام. وجاء في شرح السير الصغير[3]

---

١- الآية: ٣٩، ٤٠ في سورة الحج.

٢- مهمة الدين الإسلامي في العالم بحث للمرحوم الأستاذ/ محمد فريد وجدي، منشور في مجلة نور الإسلام سنة ١٣٥٢ ص: ٢٧١.

٣- انظر المبسوط ج١ ص ٦.

أن هذا الدعاء قد يكون موجهاً لقوم لم تبلغهم الدعوة. فيجب إعلامهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم.

وقد يكون موجهاً لقوم بلغتهم الدعوة، ودعاؤهم مرة ثانية أمر مطلوب لأنه كما جاء في هذا الشرح: جد ومبالغة في الإنذار بما ينفع. وهذا يؤكد الرغبة في إيثار السلم على الحرب في تبليغ دعوة الإسلام فإذا استجاب هؤلاء طوعاً واختياراً لما دعاهم إليه المسلمون فهم أخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا وإن أبوا ولم يستجيبوا فإن على المسلمين أن يدعوهم إلى الأمر الثاني وهو أن يدخلوا مع المسلمين في عهد وميثاق. ويصبحوا أهل ذمة لا يتعرض لهم في عقائدهم الدينية ويتمتعون بكل حقوق الحماية والرعاية في مقابل ضريبة مالية يسيرة لا تجب على غير القادرين منهم.

وذلك لهدف واحد وهو أن يأمن المسلمون هؤلاء، فلا يظاهروا غير المسلمين على المسلمين، فإن أبوا أن يدخلوا مع المسلمين في عهد وميثاق. فقد جاهروا بهذا الرفض والعداء وأمعنوا في الضلال وكان قتالهم في هذه الحالة لتحرير الناس من التسلط والقهر.

وجاء في شرح السير الكبير [1]: أن الكفر وإن كان من أعظم الجنايات فهو بين العبد وربه جل وعلا وجزاء مثل هذه الجناية يؤخر إلى دار الجزاء فأما ما عجل في الدنيا - وهو قتال الكفار - فهو مشروع لمنفعة تعود إلى العباد.

---

١- ج ٣ ص ١٨٢.

ومؤدى هذا النص يؤكد الحقيقة التي أشرت إليها وهي أن القتال في الإسلام ليس للإكراه في الدين. ولكن لتحقيق مصالح العباد بإنقاذهم من الطغاة المستبدين حتى يكون الطريق أمام دعوة الله خالياً من الأشواك والعقبات يسلكه من شاء ويعرض عنه من أبى.

وما دام القتال لدفع فتنة الكفر وشر الكفار. فإنه لا يجوز قتال إلا هؤلاء الذين يمثلون الفتنة ويمكنون للشر بالفعل أو بالقول. ولهذا لا ينبغي قتل النساء والولدان والمجانين [١] وأن حملوا السلاح والذين لا يخالطون الناس وترهبوا في الأديرة. وكذلك الشيوخ لقوله تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**﴾ وهؤلاء لا يقاتلون [٢] . فإذا شارك أحد من هؤلاء برأيه أو فعله في الحرب فقد أصبح مقاتلاً يجوز قتاله وقتله فيما عدا المعتوه فإن على المسلمين أخذه ومنعه من مشاركته في الحرب [٣].

وكما جاء النهي عن قتل غير المحاربين جاء النهي أيضاً عن الغدر وقطع الأشجار وتخريب الديار وذبح المواشي إلا لضرورة إطعام الجند[٤].

وإذا وضعت الحرب أوزارها فلا يقتل أسير ولا يتبع فار ولا يتعرض لأحد من أهل دار الحرب بالعنت بل يعاملون جميعاً معاملة إنسانية لا تعرف الإذلال وامتهان كرامة الإنسان. وإنما تعرف الرحمة والعدل والإنصاف.

---

١- المصدر السابق: ص ١٩٧.
٢- شرح السير الكبير ج ٣ ص ١٨١، ١٩١.
٣- المصدر السابق ص ١٩٤، ١٩٧.
٤- شرح السير الكبير ج ١ ص ٤٤ . د. صلاح الدين المنجد.

وأهل دار الحرب يعاملون أيضاً قبل أن يكون بينهم وبين المسلمين علاقة من ذمة أو موادعة معاملة إنسانية، فالتجارة مثلاً بيننا وبينهم لا تتوقف وعلى المسلمين أن يحذروا فقط من أن يحملوا لدار الحرب ما يزيد من قوة أهلها وبأسهم. فقد جاء في شرح السير الكبير: والأولى للمسلم أن يحترز عن اكتساب سبب القوة لهم إلا أنه لا بأس بذلك في الطعام والثياب ونحو ذلك لما روى أن ثمامة بن أثال الحنفي أسلم في زمن النبي ﷺ فقطع الميرة عن أهل مكة فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يأذن له في حمل الطعام إليهم فأذن في ذلك. وأهل مكة يومئذ كانوا حرباً لرسول الله ﷺ. فعرفنا أنه لا بأس بذلك [1].

وبهذا يتضح أن الحروب في الإسلام تخضع لقانون العدل واحترام آدمية الإنسان وليست سبيلاً لاستغلال الشعوب ونهب ثرواتها. وهي في جوهرها تحقق السلم الدائم بين الناس. لأنها تنقذهم من تجار الحروب والطغاة الذين يكرهونهم على ما لا يبتغون.

ويتضح أيضاً أن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم السلم. وإن نظرة الإسلام إلى غير المسلمين لا تعرف العداء والتعصب والكبرياء. وإنما تقوم على التسامح والتعاون والإخاء وعلى احترام العهود والوفاء بها مهما تكن الظروف والأسباب. وصدق الله العظيم: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين. ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم**

١- شرح السير الكبير ج٣ ص١٧٧ - ١٧٨ ط الهند.

**وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾**[1].

فهاتان الآيتان تلخصان الدستور الإسلامي في العلاقات الدولية. وهو دستور يقوم على السلم ويؤثر المودة على العداوة حتى مع من عادوه ما ضمن كفهم عن الاعتداء استحياء للمودة الإنسانية وتوثيقاً للروابط البشرية. فقبل الآيتين قوله تعالى: ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم**﴾ (الممتحنة الآية -٧).

وخلاصة القول إن العلاقات الدولية في الإسلام تقوم على ما يلي:

**أولاً- المساواة بين الناس:** فهم جميعاً أمة واحدة. لا طائفية ولا عنصرية بينها. ولا مفاضلة بالألوان والأجناس والأوطان ولكن بخشية الله ومراقبته ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

وأما قواعد القانون الدولي في صورته الراهنة - على الرغم من تطور الفكر القانوني وتطلعه نحو أفق رحب من الإنسانية والعالمية - فإنها لا تستجيب لمبادئ المساواة بين مختلف الدول من غير تمييز بين أديانها وأجناسها وألوانها.

ويلاحظ أن انقسام العالم انقساماً سياسياً خطيراً بين المذاهب

---

١- الآيتان رقم ٨ ، ٩ في سورة الممتحنة، ومن المفسرين من يرى أن الآيتين نسختهما آية «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقيل انهما خاصتان بحلفاء رسول الله ﷺ ومن بينه وبينهم عهد فلم ينقضه، وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة، وهو الصحيح. (انظر أحكام القرآن للجصاص ٣/٤٢٦ وتفسير الفرطبي ج ١٨، ص ٥٩ والنسخ في القرآن الكريم لأستاذنا الدكتور مصطفى زيد ص: ٥٥٣ ط: أولى).

الشـيوعية والرأسمالية والحيادية قد ساعد من جديد على ظهور الطائفية في نطاق القانون الدولي. وبدأت ظواهر هذه الطائفية في التكتلات الدولية الحديثة[1].

**ثانيـاً- السـلم أصـل العلاقة بين النـاس:** ويتفرع على تقرير مبدأ المسـاواة والوحدة قيام العلاقة بين الناس على المحبة والمودة والسلام والوئام. لأن معنى المساواة يفقد قيمته إذا لم يبلغ كل أسباب الحروب من الاستغلال والاحتلال.

وإذا كان الإسلام قد قرر أن أصل العلاقة بين الناس السلم. فإن هذا لا يتعـارض مع إذنه بالحرب وحضه على الجهاد. لأن الحرب التي أباحها في جوهرها حماية للسـلم وتمكين له في الأرض ولهذا وضع لها القوانين التي تجعلها رحمة وخيراً.

وإذا كان القانـون الدولـي قد انتهـى أخيراً إلى نبـذ الحرب في فض المنازعـات الدولية فـإن هذا جاء نتيجـة للدمار المروع الـذي تعرضت له البشـرية في الحرب العالميـة الثانية، ومع هذا لا يلقى مـا انتهى إليه هذا القانـون من الدول التقدير والاحتـرام، ومازالت الحرب القانون الذي يلجأ إليه في المشـكلات الدولية، ومازالت القاعدة التي تعيش عليها الغابة وهي: القـوة تخلق الحق وتحميه وتضع حدا لكل نزاع - هي المعول عليها في فض كلا الخلافات بين الأمم بالرغم من وجود المنظمة الدولية وجمعيتها العامة وما تصدره من قرارات.

---

١- القانون الدولي في وقت السلم للدكتور حامد سلطان، صفحة: ٤٢.

**ثالثاً:** ترتبط أصول العلاقات الدولية الإسلامية بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً فهي جزء منها لا يكمل الإيمان إلا بها. ومن هنا تلقى من الدولة والأفراد في المجتمع الإسلامي كل الإحترام والإقتناع الذاتي بها.

أما القوانين الوضعية - ومنها القانون الدولي - فإنها مبتوتة الصلة بعقائد الأفراد والدول، ولا تلقى الاحترام غالباً بدافع ذاتي ويزداد الأمر بالنسبة للقانون الدولي أنه غير ملزم في رأي بعض فقهائه[1]، وأنه لا يحول بين الدول وأطماعها السياسية والاقتصادية. وهي أطماع لا يردعها غير القوة الحربية، وليس عدوان ١٩٥٦ على بلادنا وأيضاً عدوان ١٩٦٧، وما يجري في الهند الصينية وفي المستعمرات الافريقية إلا دليلاً ملموساً على أن القانون الدولي لا يلقى - مع قصوره - الاحترام والصدق في الأخذ بقواعده.

**رابعاً- العدالة:**

يحرم الإسلام الظلم بجميع أشكاله. ويأمر بالعدل مع الأصدقاء والأعداء في كل الحالات ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ [2].

وإذا كان من العدالة أن نرد الاعتداء بمثله ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله**﴾. فإن الإسلام كما تنص الآية الكريمة لا يجعل رد الاعتداء بمثله أمراً مطلقاً، بل يقرن به تقوى الله. ومن هنا يكون

---

١- آثار الحرب في الإسلام، الدكتور وهبه الزحيلي، ص ٠١.
٢- الآية: ٨ في سورة المائدة.

العدل في الإسلام عدلاً إنسانياً رحيماً لا يعرف التشفي، ولا يمتهن الكرامة والفضيلة ولا ينزل إلى مستوى الهمجية والوحشية. ولو كان غيرنا قد هبط إلى هذا المستوى.

ومن أجل ذلك كان الإسلام دين القوة. قوة الإيمان والأبدان والسلاح حتى نحمي دائماً العدالة والفضيلة.

ومن أروع ما يروى عن عدالة المسلمين مع أعدائهم في الحروب أن قتيبة ابن مسلم الباهلي القائد الفاتح دخل سمرقند من غير أن يخير أهلها بين الإسلام أو العهد أو الحرب، فأرسل أهل سمرقند إلى عمر بن عبدالعزيز والي أمير المسلمين يشكون إليه أن قتيبة لم يخيرهم ولو خيرهم لاختاروا. فأرسل خامس الخلفاء الراشدين إلى القاضي وقال له: إذا جاءك كتابي هذا فأجلس قتيبة والمحاربين وسألهم، فإن تبين صدق شكوى أهل سمرقند، فأمر جيش المسلمين بأن يترك البلاد، وحقق القاضي القضية وتبين له أن قتيبة لم يخيرهم ذلك التخيير. فأصدر أمراً بأن يترك جيش المسلمين سمرقند. وأن يخير أهلها بين الإسلام أو العهد أو الحرب. وخرج جيش المسلمين من سمرقند. وقبل أهلها بعد ذلك العهد، ومنهم من دخل في الإسلام [1].

أليس هذا هو العدل الكامل الرائع. قاضي المسلمين ينصف أهل الحرب من قائد جيش المسلمين، ثم يأمر هذا الجيش بترك المدينة التي دخلها دون أن يخير القائد أهلها فهو بهذا قد ظلمهم. والإسلام شريعة العدل في السلم والحرب..

١- انظر أسبوع الفقه الإسلامي الثالث، ص: ٢٠٠

فهل يمكن أن يحدث هذا اليوم في عصر الحضارة والمدنية والقوانين الدولية؟

**خامساً - احترام العهود والوفاء بها:**

للعهود والمواثيق في الإسلام حرمة مقدسة يجب الوقوف عند حدها. وعدم التفريط فيها. والنصوص في ذلك كثيرة يمكن الاجتزاء منها بقوله تعالى: ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم. ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها. وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً. إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة**﴾[1].

فهذا النص الكريم يحتم الوفاء بالعهد وعدم نقضه. ويحذر من الخديعة والدخل في المواثيق. ويشبه الذين يعقدون العهد ثم ينقضونه بالحمقاء التي تغزل غزلاً محكماً وبعد ذلك تنقضه. وفي هذا إشارة إلى أن نقض العهد لا يفعله إلا الحمقى [2].

ويشير النص أيضاً إلى أن الرغبة في زيادة الأرض أو القوة لا يصلح أن يكون شيء من هذا سبباً لنقض العهد. فالعدالة الإسلامية لا تجعل مصلحة الدولة سبيلاً لنقض العهد ما دامت شروطه مضمونة من الأعداء.

ولذلك يحذر القرآن الكريم من نقض العهد حين يستنصر المسلمون إخوانهم المسلمين ليجاهدوا معهم في الدين. فإن عليهم أن يحترموا ما

١- الآيتان ٩١، ٩٢ في سورة النحل.

٢- أسبوع الفقه الإسلامي الثالث، ص: ١٩٩.

بينهم وبين غيرهم من مواثيق: ﴿**وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ [1].

ولم تكن هذه المبادئ القويمة في رعاية العهود مثلاً نظرية بل كانت سلوكاً واقعياً في حياة المسلمين وفي صلاتهم الدولية. ومن ذلك ما جاء عن حذيفة بن اليمان قال: ما منعني أن أشهد بدر إلا أنني خرجت أنا وأبو الحسيل فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً. فقلنا: ما نريده وما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال: «انصرفا: نفي بعهودهم. ونستعين بالله عليهم».

وقال أبو رافع مولى رسول الله: بعثتني قريش إلى النبي. فلما رأيت النبي وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله لا أرجع إليهم. قال: «أني لا أخيس العهد ولا أحبس البرد. ولكن ارجع إليهم. فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع» [2].

هذا هو موقف الإسلام من رعاية العهود والوفاء بها، ولكن الأمر بالنسبة للعرف الدولي يختلف كل الاختلاف فالمعاهدات لدى هذا العرف وسيلة القوي ينال بها من الضعيف. وهي لا تعدوا أن تكون قصاصة ورق يمكن نكثها قبل أن يجف مدادها.

ففي مطلع القرن الحالي (القرن ٢٠) اتفقت بعض الدول على حياد

---

١- الآية ٧٢ في سورة الأنفال.

٢- انظر مجلة المسلمون شوال سنة ١٣٧٢ ص : ٢٣.

بلجيكا. وأرادت ألمانيا أن تمر بجيوشها من الأراضي البلجيكية حتى تحارب فرنسا. ورفضت بلجيكا ذلك، واحتجت انجلترا على تصرف ألمانيا وأنذرتها بالحرب إذا لم تعدل عن خرق حياد بلجيكا وقال المستشار الألماني في رده على انجلترا: «إن من الهول ما تنويه حكومة جلالة الملك البريطاني. ومما يعز علي أن أتصور جلالته قابلاً دخول حرب مراعاة لقصاصة ورق يسمونها معاهدة واتفاقاً على حياد أرض» [1].

فالمعاهدات قصاصات ورق لا قيمة لها إذا تعارضت مع مصلحة الدولة، والمصلحة هنا تشمل الغزو للاحتلال، وهذا يؤكد أن قواعد القانون الدولي - وهي تحض على المحافظة على المعاهدات - مبتوتة الصلة بضمائر الأفراد والجماعات.

وبعد فهذه في إجمال أصول العلاقات الدولية في الإسلام كما بينها كتاب الله وسنة رسوله، وتحدث عنها فقهاؤه وفي مقدمتهم الإمام محمد بن الحسن الشيباني. وهي أصول لُحمتها وسداها السلام والوئام والرحمة والعدالة وحماية الفضيلة. وهي وحدها صمام الأمان للبشرية جمعاء.

ومهما أبدع الفكر الإنساني من قوانين ونظم فلن يبلغ شأو تلك الأصول «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» [2].

* * * * * * *

١- أنظر نظم الحرب في الإسلام للإستاذ جمال الدين عماد ص ٢٧

٢- الآية: ١٣٨ في سورة البقرة.

# الفهرس


تقديم ..... ٥

مفاهيم ينبغي أن تصحح في سياق العلاقة مع الآخر ..... ٧

د. عصام أحمد البشير

نحن والغرب صراع المصالح أم صراع الرؤى والقيم؟ ..... ٢١

ممدوح الشيخ

مصالح الحضارات وليس صراع الحضارات ..... ٣١

د. أحمد عبدالعزيز المزيني

المسلمون والغرب قراءة في فقه الواقع ..... ٤٣

شاكر عبدالمقصود

الحوار الحضاري في سياق العولمة جدلية الغالب والمغلوب ..... ٥٩

عبدالعزيز انميرات

هل هو غياب الثقة بين الإسلام والغرب؟ ..... ٨٧

د. حسن عزوزي

الإسلام والحضارة الغربية: بديل أو منافس؟ ..... ٩٩

د. محسن خضر

مبادئ الخطاب الإسلامي المعاصر في التعامل مع الحضارة الغربية ..... ١١١

أ. فهمي هويدي

أصول العلاقات الدولية في الإسلام ..... ١٢٥

د. محمد الدسوقي

تم التنفيذ والإخراج والطباعة
بالشركة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون: ٢٤٢٣٥٤٣ - فاكس: ٢٤٢٠٣٦٤